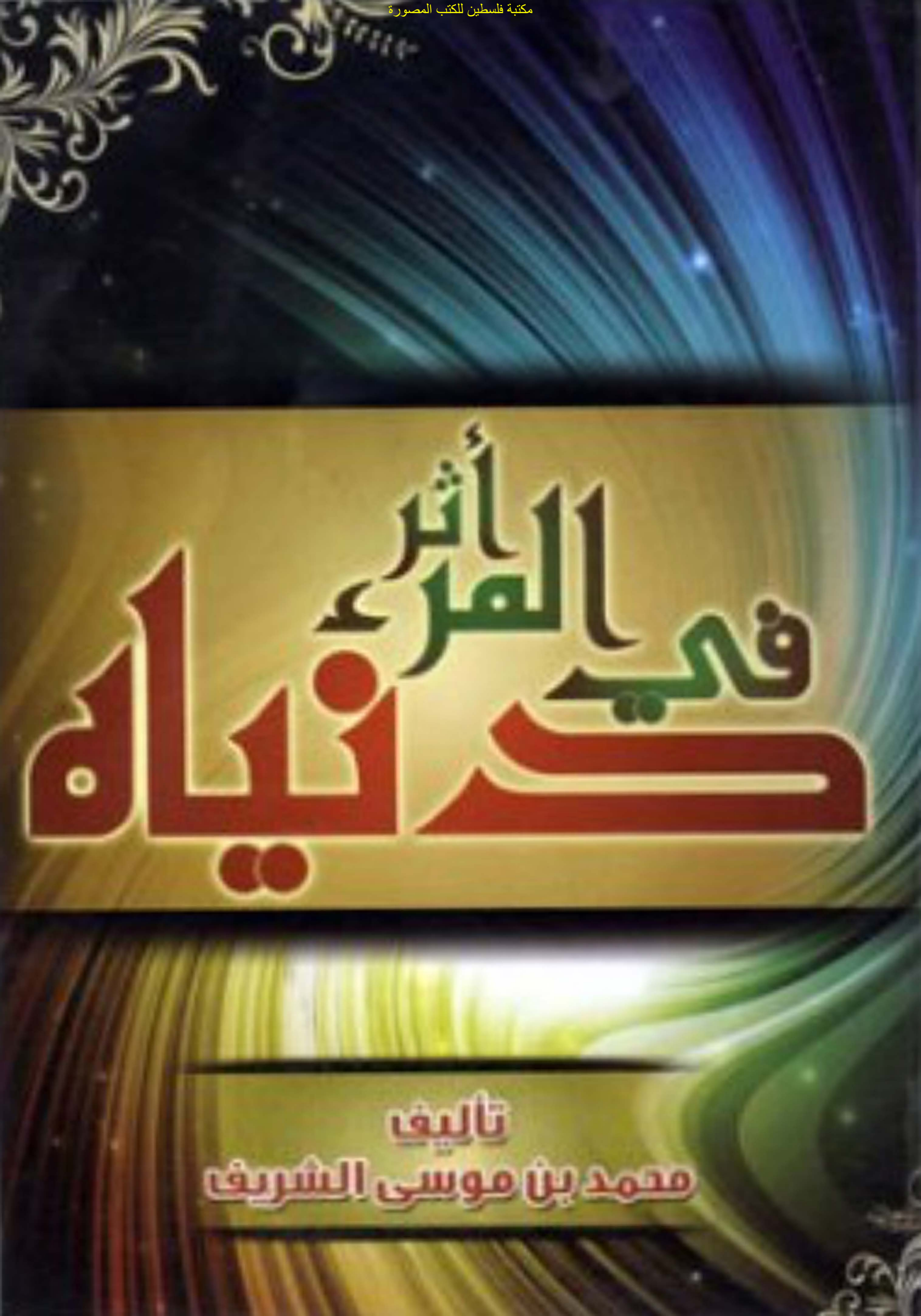

مكتبة فلسطين للكتب المصورة
أثر المرء في دنياه
تأليف
محمد بن موسى الشريف



د. محمد موسى الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم






اسم الكتاب :	أثر المرء فى دنياه
المؤلف :	د. محمد موسى الشريف
التجهيز الفني :	مركز السلام للتجهيزات
الطبعة :	الأولى
سنة الطبع :	١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
المقاس :	١٥ × ٢١
الناشر :	دار التوزيع و النشر
رقم الإيداع :	٢٠١١/١٣٥٢٢
الترقيم الدولي :	977-265-831-3



دار التوزيع والنشر
٢٥١ شارع بورسعيد - السيدة زينب - القاهرة
ت.فاكس ٢٣٩١٧٩٥٦ ت - ٢٣٩١٧٩٥٠

المملكة العربية السعودية
a_honen@hotmail.com



www.eldaawabookshop.com
d.eltwzea@gmail.com





إهداء

- إلى كل عامل مجتهد راغب فى الخير والأجر.
- إلى كل راغب فى إحداث أثر فى دنيا الناس.
- إلى كل العاملين فى حقول الدعوة والإصلاح.
- إلى كل الغيورين على أمتهم؛ حاضرها ومستقبلها.

- **قالوا:**

كن كغيث إذا أقبل استبشر به الناس.

وإذا حَطَّ نفعهم.

وإن رحل ظَلّ أثره فيهم.

- **وقالوا:**

عظيم الهـمة لا يقنع بملء أوقـاته بالطاعـات وإنما يفكر ألا تموت حسناته بموته.

- **وقالوا:**

المحسن حيٌّ حتى وإن نُقل إلى منازل الأموات.

- **وقالوا:**

ليـست العبـرة أن تضيف سنـوات إلى حيـاتك ولكن العبـرة أن تضيف حياة إلى سنواتك.

قال تعـالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]

وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [أخرجه مسلم]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإني أَعُدُّ من توفيق الله تعالى لي أني أخّرت الشروع في تصنيف هذه الرسالة إلى هذا الوقت، وذلك لعدة أسباب، منها:

أولاً: أني جزت الخامسة والأربعين، وهو عمر كاف لإنضاج ما أريد كتابته، والوقوف على دقائق وتفصيلات تعين على تسديد البحث، وتقويمه، وكذلك هو عمر الاتزان والاعتدال الفكري والعاطفي.

ثانيًا: جاء شروعي في هذا البحث[1] بعد تصنيفي لعدد من الكتب تُعد كالمهيئ له، والمؤسس لكثير مما جاء فيه، فمن لوازم ترك الأثر أن يكون المرء صاحب همّة، ثابتًا على الصلاح والعمل، متأدبًا بآداب الشرع المطهر، بعيدًا عن العجز والتسويف، مقبلاً على الله تعالى، راغبًا فيما عنده، صاحب ثقافة عالية، وفي كل ذلك كتبت رسائل عديدة جاءت مهيئة لهذا الأمر ومؤسسة له.

(١) كنت قديمًا قد تكلمت في محاضرة عن هذا الموضوع المهم، ثم رأيت أنه لابد من تصنيف كتاب في هذا الموضوع، فكانت هذه الرسالة، والله الموفق.

ثالثًا: كثير من الناس فى هذا الوقت قد عظم عندهم هذا المعنى، واشتعل فى نفوسهم، ورغبوا فى إحداث أثر فى دنياهم، وربما كان هذا بسبب نضوج الصحوة إلى حد كبير، ولظهور بعض الأعمال والمشروعات التى هى مرآة عاكسة لجهود حثيثة تصب فى قضية الأثر المنشود، وقد سئلت مرات كثيرة عن هذه القضية وكيفية تحقيقها، فجاءت هذه الرسالة لتجيب عن هذه الأسئلة إن شاء الله تعالى، ولتكون معينًا لطالبى هذا المطلب العظيم.

فقد جاء تأليف الرسالة -إذًا- فى وقت اشتدت الحاجة فيه إلى هذا الأمر، خاصة أن الأمة الإسلامية اليوم تجتاز مرحلة صعبة، ومخاضًا معقدًا، ستعبر منه إلى فضاء التمكين إن شاء الله، وكل هذا يقتضى إيجاد عمل عظيم خالد فى دنيا الناس على أيدى رجال عظماء ونساء عظيمات، وهذا ما أسميه بالأثر، وأدعو الدعاة إلى التفكير فيه مليًا عسى أن يُكتب لهم ويوفَّقوا إليه.

وقد بحثت فى هذه الرسالة قضية الأثر الذى ينبغى أن يتركه المرء فى دنيا الناس، وبينت أهميته، وكيفية الوصول إليه، وضربت الأمثلة المساعدة على تصور هذه القضية والمضى قُدُمًا فى تحقيقها، والله تعالى الموفِّق، وهو المستعان.

المؤلف

د. محمد موسى الشريف

البريد الإلكترونى mmalshareef@hotmail.com

الموقع على الشبكة WWW.ALTAREEKH.COM

تمهيد

يعيش معظم الناس على هذه الأرض مُددًا متفاوتة ثم يغادرونها، ولئن سألت عنهم، وعن آثارهم، وأعمالهم، لوجدت أنهم كانوا كسحابة صيف سرعان ما انقشعت ولم تمطر، وأنهم كانوا كظل سرعان ما زال، عاشوا سنوات طويلات ثم ماتوا، عاشوا لم يشعر بهم أحد، وماتوا فلم يدرِ بهم أحد، ولعمر الحق ما هكذا يعيش العظماء، ولا هكذا يموت الأبطال.

والناظر لتاريخ البشرية من آدم -عليه الصلاة والسلام- إلى يوم الناس هذا يشاهد بوضوح أن العظماء من الرسُل والأنبياء وأصحابهم والصديقين والأولياء والعاملين من الصالحين هم الذين قامت عليهم الأعمال العظيمة، وهم الذين تولوا إنجازها، وهم الذين ذهبوا بأجرها، والباقون بين ناظر وناكث، أو مشارك على استحياء ولرفع اللائمة عنه فقط، أو أن همته تعلقت بأعمال مرجوحة فى الفضل والأثر فلا يدرى هؤلاء ما فاتهم من الأجر العظيم والمنازل العالية.

وليس ترك الأثر بالأمر الهين السهل بل هو نتاج عمل طويل نافع، وعمر مديد، ونظر مفصّل، يصاحب كل ذلك توفيق من الله تعالى ودلالة وإرشاد، وهناك عقبات على الطريق، وآلام وآمال، وانتكاس وانتعاش، وتوقف ومعاودة، وإخفاق ونجاح، إلى أن يصل المرء إلى بغيته ويحقق هدفه.

وهو أمر جليل يهون أمامه كل صعب، وعظيم يُستصغر معه كل خَطْب.

والأمة الإسلامية اليوم تخطو إلى الكمال والرقى والسيادة، وتطمح إلى العزة والكرامة، وترنو إلى المجد والقيادة لكنها لن تصل إلى ذلك بالأمانى، ولا بأنصاف الأعمال إنما ستصل -بعد توفيق الله تعالى وفضله- ببذل عظيم، وجهد كبير، وتضحيات جليلات، وأعمال كبيرة، ومشروعات رائدة، تنتج آثارًا خالدة فى دنيا الناس، لذلك لم تكن أهمية ترك الأثر النافع الجليل مقصورة على الشخص نفسه ولا على زمانه الذى يعيشه، إنما تكمن أهميته فى العمل الضخم المبذول للوصول إليه، وفى النشاط الكبير الحاصل فى المجتمع لتحقيق ذلك الأمل العظيم ثم فى الفوائد الكثيرة التى سيجنيها ذلك المجتمع من تلك الآثار الخوالد. وكثرة الآثار الخالدة فى شعب ما دليل على وعى كثير من أفراده، وأنه شعب قدّم الكثير فى سبيل الحصول على ما حصل عليه، وهو شعب معطاء عامل، وقلة الآثار الخالدة فى شعب آخر دلالة على خمول أفراده، وضعفهم، وتواكلهم، ورضاهم بالقليل، وإخلادهم إلى الأرض. والخلاصة أن الآثار الجليلة هى من أكبر المقاييس التى تقيس همم الشعوب وعطاءها وبذلها وتضحيتها. ولم تخلف أمة من الأمم ما خلفته أمة الإسلام من آثار فى جميع جوانب الحياة، لكننا نعانى من مشكلة كبيرة ألا وهى أن هذه الآثار كانت من صنع الآباء والأجداد، فماذا صنعنا نحن؟ وما الذى سنخلفه من آثار فى الحياة؟ وهل سيجنى أحفادنا من آثار أعمالنا ما نجنيه نحن اليوم من آثار جليلة لأجدادنا العظام.

إن قضية الأثر العظيم قـضية مفصلية في حـياة الأمم والشعوب، لابدّ من تعظيـمهـا في أذهان الناس صـغارهم وكـبـارهم، لأن نواتج تلك الآثار هي الضامن -بعد عناية الله تعالى وتوفـيقه- لمستقبل زاهر ونهضـة باهرة، فمسألة ترك الأثر لابدّ من تدريسهـا للطلاب في المدارس والجامعات، وتذكـير الناس بها في وسائـل الإعلام، وإعداد المجتمع وتهـيئته للعناية بهـا، وإنزالها المكان اللائق بها في دنيا الناس، لأن قناعة الناس بها مقدمة مهمة لبدء أعمال جليلة ومشروعات رائدة.

هذا ما أومن به، ودعوت إليه طويلاً، ولهذا كتبت هذه الرسالة، وسطرت هذه المقالة، والله الموفق.

المبحث الأول: ذكر الآثار
في كتاب الله تعالى وسنة المختار ﷺ

١- الآثار في كتاب الله تعالى:

الله تبارك وتعالى ذكر هذه القضية فى كتابه فى مواضع عديدة، منها:

١- فى معرض ثنائه على الأنبياء العظام والرسل الكرام حين ذكر أحوال كل منهم، فعقب عليها جل جلاله بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٨]

أى: وتركنا ثناءً حسنًا عليه[1] وهذا لأن أعمالهم عظيمة، وآثارهم جليلة، فحصل لهم الثناء الجليل على ألسنة الناس إلى يوم القيامة.

٢- وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥- ٤٧].

وفى هذه الآيات الجليلات يثنى الله تعالى على أنبيائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأنهم أصحاب القوة والحكمة، وأنه جعلهم يذكرون الناس بالدار الآخرة، لكنَّ هناك تفسيرا آخر لذكرى الدار مناسب لهذا البحث، فقد قال الإمام القرطبى[2] بعد أن ذكر عدة أقوال فى الآية: «والدار يجوز أن يراد بها

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٧/ ١٩، ٢٠.

(٢) هو الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن أبى بكر الأنصارى الخزرجى القرطبى، إمام متفنن متبحر =

الدنيا: أى ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها... ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الفاعل، والخالصة مصدر بمعنى الخلوص أى بأن خلصت لهم ذكرى الدار وهى الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدم»[1]، وهذا التفسير جيد قوى، ومناسب لهذا الحديث الذى يبين أهمية ترك الأثر، ومن خلصت له الذكرى فى الدنيا فقد ترك أثرًا عظيمًا.

٣- وقصّ الله علينا طلب الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما قال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

فهو قد طلب من الله تعالى أن يبقى ذكره وعمله مترددًا فى الأجيال، قائمًا على مر الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد أجابه الله تعالى إلى طلبه بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨]، وهذا من أعظم الآثار المتروكة والأعمال المباركة.

قال الإمام ابن كثير[2] رحمه الله تعالى: «أى اجعل لى ذكرًا جميلاً بعدى

= فى العلم. له تصانيف تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله، توفى سنة ٦٧١ بصعيد مصر التى انتقل إليها من الأندلس، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته فى «الوافى بالوفيات»: ٢/ ١٢٢، ١٢٣.

(١) «الجامع لأحكام القرآن»: ١٥/ ٢١٨.

(٢) هو الشيخ الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير البُصروى، عماد الدين، وُلد سنة ٧٠٠ أو بعدها بيسير، نشأ بدمشق وسمع من طائفة واشتغل بالحديث وجمع التفسير والتاريخ الذى سماه: «البداية والنهاية»: وله عدة مصنفات سارت فى البلاد، كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، مات سنة ٧٧٤ وكان قد أضرّ فى أواخر عمره. انظر: «الدرر الكامنة»: ١/ ٣٩٩، ٤٠٠.

أُذكر به، ويُقتدى بى فى الخير كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٧- ١١٠][١].

والله تعالى قد عظّم قدر هذا النبى العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم وأمرنا باتباع صنيعه كله -إلا استغفاره لأبيه، وكان فى هذا متأولاً -فمن جملة اتباعه إذًا أن نحرص على هذا الذى دعا الله تعالى به من ترك الأثر الجميل والذكر الحسن.

٤- وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

وهذا فى سياق مدح الأنبياء العظام: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وقال الإمام القرطبى رحمه الله تعالى: «أى أثنينا عليهم ثناءً حسنًا، لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم»[٢]، وإحسان الثناء هو من جملة الآثار الحسنة التى يكرم الله تعالى بها بعض عباده.

وقال الأستاذ الطاهر بن عاشور[٣] رحمه الله تعالى: «اللسان: مجاز فى الذكر والثناء... والصدق: بلوغ كمال نوعه... فلسان الصدق: ثناء الخير والتبجيل. وقد رُتب جزاء الله إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيبًا بديعًا؛ إذ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٦/ ٢٥٧.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»: ١١/ ١١٣، وهو أحد التفسيرين فى الآية، والتفسير الآخر أن كلمتهم مسموعة فى قومهم.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، وُلِدَ سنة ١٢٩٦ بتونس، وعين عام ١٩٣٢ شيخًا للإسلام، وهو من أعضاء المجمعين العربيين فى دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة متداولة ومقالات كثيرة فى المجلات، توفى بتونس سنة ١٣٩٣ رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٦/ ١٧٤.

جوزى بنعمة الدنيا -وهى العقب الشريف- ونعمة الآخرة- وهى الرحمة- وبأثر تَيْنِك النعمتين وهو لسان الصدق؛ إذ لا يُذكر به إلا من حصل النعمتين»[١].

٥- وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

قال الإمام ابن كثير الدمشقى رحمه الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾: أى من الأعمال.

وفى قوله: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم، وآثارهم التى أثَروها من بعدهم فيجزيهم على ذلك أيضًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. كقوله ﷺ: «مَن سنَّ فى الإسلام سُنَّة حسنة كان له أجرها وأجر مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومَن سنّ فى الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها من بعده من غير أن يُنقص من أوزارهم شيئًا» رواه مسلم.

ثم ذكر الإمام ابن كثير أن النبى ﷺ تلا هذه الآية فى قصة الوفد من المضريين، وهى قصة مشهورة ستأتى إن شاء الله تعالى.

ثم نقل عن سعيد بن جبير[٢] رحمه الله تعالى تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ يعنى: ما أثّروا، يقول: ما سَنُّوا من سنّة فعمل

---

(١) «التحرير والتنوير»: ١٢٥/١٦، ١٢٦ وفى قوله لا يذكر به إلا من حصل النعمتين نظر عندى -والله أعلم- إذ لا يلزم، إلا إن أراد نعمة الدنيا على إطلاقها.

(٢) هو الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الوالبى بالولاء =

بها قوم من بعد موتهم، فإن كان خيرًا فله مثل أجورهم لا ينقص من أجر من عمله شيئًا، وإن كانت شــرًا فعليه مثل أوزارهم ولا ينقص من أوزار مَن عمله شيئًا.

ثم قال: **والقول الثاني**: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية.

ثم ساق الإمام ابن كثير رحمه الله أحاديث فى هذا المعنى، ثم قال: «وهذا القــول لا تنافى بينه وبين الأول، بــل فى هذا تنبـيه ودلالــة على ذلك بطريق الأوْلى والأحرى، فإنه إن كانت هذه الآثار تُكتب فــلأن تُكتب تلك التى فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى» والله أعلم[1].

٢- الآثار عن النبى المختار ﷺ:

قد وردت جملــة من الأحاديث الشريفة المنيـفة عن النبى ﷺ توضح عظم هذه القضــية وأهميتــها فى الإسلام، فــمن ذلك قوله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**»[2].

وقد جــاء فى رواية أخرى أعمــال أوسع تفصيلاً وإلا فــهى مندرجة فيــما سبق، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قــال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما يلحق**

= الكوفى. روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين، وقرأ القرآن على ابن عباس رضى الله عنهما. وكان من كبار العلـماء، عاش ٥٧ سنة، قتله الحجاج سنة ٩٥ لخروجـه فى فتنة ابن الأشعث، انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٣٢١- ٣٤٣.

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٦/ ٥٥١- ٥٥٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب الوصية: باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته.

المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علّمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه، ومصحفًا ورّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته»[1].

وهذه كالأمثلة على الأعمال التى يلحق العبدَ ثوابُها وهو فى قبره، وهى أعمال كثيرة متنوعة لا تكاد تدخل تحت الحصر، وهذا من فضل الله تعالى علينا.

وقال ﷺ: **«مَن سنَّ فى الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومَن سنّ فى الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء»**[2].

والحديث جاء فى قصة جليلة، يحسن الإتيان بها لما فيها من المعانى المرسخة لما نحن فيه من مسألة ترك الآثار:

فعن جرير بن عبد الله البجلى[3] رضى الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار، قال: فجاءه قوم حُفاة عُراة مُجْتابى النِّمار -أو

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه فى المقدمة: باب ثواب معلم الناس الخير، ونقل المحقق عن ابن المنذر أنه قال: إسناده حسن.

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب الزكاة: باب الحث على الصدقة على ذوى الحاجة وأجر من سنّ فيها سنّة حسنة.

(٣) جرير بن عبد الله بن جابر البجلى القسرى، أبو عمرو اليمانى، كان إسلامه رضى الله عنه فى السنة التى توفى فيها النبى ﷺ، نزل الكوفة ثم انتقل إلى قيرقيسيا، وكان جميلاً جدًا رضى الله عنه، وحديثه فى الكتب الستة، توفى سنة ٥١ رضى الله عنه. انظر: «تهذيب التهذيب»: ٢/ ٦٣، ٦٤.

العَباء[1]- متقلدى السيوف[2]، عامتهم من مُضَر، بل كلهم من مُضَر، فتمعّر وجه[3] رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقـة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذّن وأقام، فصلّى ثم خطب فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء: ١]، والآية التى فى الحشر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ [الحشر: ١٨]. تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال: «**ولو بشق تمرة**» قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلّل كأنه مُذهبة[4]، فقال رسول الله ﷺ: «**مَن سنّ فى الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سنّ فى الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء**».

قال الإمام النووى رحمه الله تعالى[5]: «وكان الفضل العظيم للبادئ بهذا الخير، والفاتح لباب هذا الإحسان»[6].

---

(١) النِّمار جمع نَمِرة وهى ثياب صوف، ومجتابى النمار أى أنهم خرقوا الثياب من وسطها ولبسوها، والعباء جمع عباءة وعباية.

(٢) أى يلبسون السيوف فى العنق كالقلادة.

(٣) أى تغير وجهه الشريف ﷺ.

(٤) هى الفضة إذا طُليت بذهب.

(٥) يحيى بن شرف بن مُرِّى النووى ثم الدمشقى، الإمام المشهور. توفى بنوى سنة ٦٧٦ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته موسعة فى «طبقات الشافعية الكبرى».

(٦) صحيح مسلم شرح النووى: كتاب الزكاة: باب الحث على الصدقة، وقد سبق.

وهذا الرجل الأنصارى كان له فضل السبق فى تأسيس هذا المعروف، لذلك مدحه النبى ﷺ بقوله: «**مَن سنّ فى الإسلام سنّة حسنة...**» وفى هذا بيان لفضل المبادرة إلى سن الأعمال الصالحة العظيمة التى يقتدى الناس بسانِّها ومبتدئها، وهذا -ولا شك- جزء من الأثر العظيم الذى يبقى للمرء، إذ قد نصّ النبى ﷺ على أن له أجرها وأجر من عمل بها بعده، وهذا من الفضل الجليل والعمل العظيم.

وقد جاء فى الحديث أن صلة الرحم لها عمل فى بقاء الأثر -على أحد التفاسير للحديث- فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم مَحَبَةٌ فى الأهل، مثراةٌ فى المال، مَنْسَأة فى الأثر**»(١).

وقد جاء فى تفسير قوله ﷺ: «**منسأة فى الأثر**» عدة أقوال:

أولها: أن صلة الرحم سبب لتأخير الأجل وزيادة العمر.

وثانيها: أن صلة الرحم باعث دوام واستمرار فى النسل، والمعنى أن بركة الصلة تفضى إلى هذا.

وثالثها: أن صلة الرحم تؤدى إلى حصول البركة والتوفيق فى العمل وعدم ضياع العمر فكأنه زاد.

---

(١) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: كتاب البر والصلة: باب ما جاء فى تعليم النسب، والحديث حسن. ومعنى: محبة فى الأهل أى سبب للمحبة والود، ومثراة أى مكثرة، والمنسأة مأخوذة من النَساء وهو التأخير. انظر «تحفة الأحوذى»: ٦/ ١١٣.

ورابعها: أن صلة الرحم سبب لبقاء ذكره الجميل بعده، وهذا القول كأنه مترتب على القول السابق ومقتضٍ له.

وجاء فى «فتح البارى»[1] فى بيان هذا قولُه: «صلة الرحم تكون سببًا للتوفيق للطاعة، والصيانة عن المعصية، فيبقى بعده الذِكر الجميل فكأنه لم يمت، ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذى يُنتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح...».

ونقل أيضًا فى الفتح أن الله يبقى أثر واصل الرحم فى الدنيا طويلاً فلا يضمحلّ سريعًا كما يضمحلّ أثر قاطع الرحم[2].

وخامسها: أن صلة الرحم سبب لوجود الذرية الصالحة[3].

والقولان الثالث والرابع -وخاصة الرابع- لهما مدخل فى هذا البحث الذى يدور على ترك الأثر الجميل، وعدم ضياع العمر، وما أحسن هذا العمل العظيم -صلة الرحم- الذى يؤدى إلى ترك الأثر، فهى -أى صلة الرحم- تجمع بين العبادة، والفائدة، وقضاء حق الأهل والأقارب.

كان هذا نقلاً موجزًا لشىء مما جاء فى كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ عن الأعمال ذوات الآثار وأهميتها فى حياة المسلمين وبعد مماتهم.



---

(١) فتح البارى: ٢٢/ ١٩٥.

(٢) المصدر السابق: ١٩٦.

(٣) انظر هذه الأقوال فى: «تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى»: ٦/ ١١٣، ١١٤.

المبحث الثاني:

الآثار: قدر وتفاوت

١- معنى الآثار:

الأثر لغة:

- جاء في (القاموس المحيط):

الأثر: بقية الشيء، جمعه آثار وأُثُور.

وأثر فيه تأثيرًا: ترك فيه أثرًا.

- وجاء في (المعجم الوسيط):

الأثر: العلامة وما خلّفه السابقون.

الأثر اصطلاحًا:

- ويمكن تعريف المراد بالأثر هنا على النحو التالي:

هو ما يتركه المرء خلفه من نتائج عمله صالحًا كان أو طالحًا.

وإنما قلت: نتائج عمله، ولم أقل: عمله؛ لأن الأثر ناتج العمل وتابع له، وليس بالضرورة أن يكون هو العمل؛ إذ كم من عمل انقطع أثره أو لا أثر له أصلاً، ألا ترى أن الله تعالى قال: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ [يس: ١٢] فما قدّموه هو الأعمال من خير أو شر، والآثار توابع نتائج الأعمال.

- والآثار نتائج أعمال حسية ومعنوية:

فالحسية: هى المشاهدة المحسوسة مثل: بناء المساجد، وحفر الآبار، وتشييد الأوقاف، إلى آخر ما يمكن أن يبقى فى الأرض من آثار لتلك الأعمال.

وأما المعنوية: فهى آثار تعليم العلوم، والدعوة إلى الله تعالى، وما يمكن أن يبقى فى الأرض بعد موت صاحبه أطول بكثير من بقاء آثار الأعمال المحسوسة.

والآثار من جملة الأقدار:

فالأثر الذى سيحدثه العبد فى هذه الدار والذى سيتركه من بعده، هو من جملة ما قُدر عليه، وقد جاء فى السنّة هذا واضحًا، فقد قال النبى ﷺ: **«يدخل الملك على النطفة بعد أن تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقى أو سعيد؟ فيُكتبان. فيقول: أى ربِّ، أذكرٌ أو أنثى؟ فيُكتبان. ويُكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تُطوى الصحف فلا يُزاد فيها ولا يُنقص»**[(1)].

وعن أبى الدرداء[(2)] رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«فرغ الله إلى كل عبد من خمس: من أجله، ورزقه، وأثره، وشقى أم سعيد»**[(3)].

---

(1) صحيح مسلم: كتاب القدر: باب كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه، وكتابة رزقه، وأجله، وعمله، وشقاوته، وسعادته.

وقد جاء فى «الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى»: ١/ ١٣٠ تفسير الأثر بمعنى مكان الموت والمضجع، ولا يستقيم هذا التفسير عندى، والله أعلم، مع السياق ومع نص الحديث الآخر -الآتى- الذى بيّن المراد من الآثار أنها الموطوءة أو المبلوغة، والله أعلم.

(2) عويمر بن زيد بن قيس الخزرجى الأنصارى، أسلم يوم بدر. مناقبه وفضائله كثيرة جدًا. مات رضى الله عنه فى خلافة عثمان لسنتين بقيتا من خلافته. انظر «تهذيب التهذيب» ٨/ ١٥٦، ١٥٧.

(3) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، وسنده حسن، انظر «الفتح الربانى»: ١/ ١٣٠.

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قالت أم حبيبة: اللهم متِّعنى بزوجى رسول الله ﷺ، وبأبى -أبى سفيان- وبأخى معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: **«إنكِ سألتِ الله لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة لا يُعَجِّل شيئًا منها قبل حِلِّه**[1]**، ولا يؤخر منها شيئًا بعد حِلِّه، ولو سألتِ الله أن يعافيكِ من عذاب فى النار وعذاب فى القبر لكان خيرًا لكِ...»**[2].

وفى رواية: عوضًا عن **«وآثار موطوءة»**: **«وآثار مبلوغة»**.

فالآثار هنا سواء أكانت بمعنى الخطوات أم كانت بمعنى الأعمال المتروكة من خير أو شر لتدخل فى هذا البحث دخولاً ظاهرًا، والمعنى الثانى أظهر وأدل على ما يُقرر فى هذا البحث من أن ترك الآثار المحمودة هو من توفيق الله تعالى للعبد وعنايته به، وهو من جملة مَا قضاه الله تعالى وقدّره لعبده، ودليل سعادته، وبرهان توفيقه.

•

تفاوت الآثار المحمودة:

والآثار المحمودة متفاوتة، فمن آثار عظيمة كالجبال الرواسى إلى آثار محدودة النفع لكنها محمودة على كل حال، يذكر الناس أصحابها بخير ويدعون لهم. وبين الآثار العظيمة والآثار الصغيرة أقدار من الآثار، وفضائل ودرجات لا يعلمها إلا الله تعالى، وتتفاوت بتفاوت الآثار درجات الأخيار، وتعلو درجاتهم تبعًا لعظم آثارهم.

---

(١) أى نزوله.

(٢) المصدر السابق: باب بيان أن الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص.

ولهذا لا يستصغرن المرء أثرًا يتركه مهما صغر، فإنه ربما يبارك له فيه فيصير عند الله عظيمًا، وربما تعظم فائدته للناس على صغره فيظلون يدعون له ويذكرونه بخير ما بقى أثره على الأرض.

أرأيت إلى رجل حفر بئرًا فى بقعة جافة فأحياها، وشرب منها أناس كثيرون وبهائم، وبارك الله فى بئره هذه لحُسن نيّته، فبقيت مدة طويلة من الزمن، ونفع الله بها، فهذا الأثر الذى خلّفه أثر مبارك على صغره، وعمل مبرور على قلّته.

وربما عمد رجل من الناس إلى أعمال عظيمة فعملها لكن نيته فيها مدخولة مغشوشة، فصغّر الله عمله هذا وأهمل أثره فلم يعد يذكره أحد، ولا يلتفت إلى عمله هذا مُلتفت، وهو يُعَدُّ بهذا من جملة المحرومين، نسأل الله السلامة والعافية.

والموفَّق السعيد مَن هُدِى إلى عمل رشيد له أثر عظيم، وصاحَبته فيه نية حسنة، فهذا هو المسدَّد، وعمله هو الباقى فى الناس، المؤسَّس على أعظم أساس.

والناظر فى صفحات الآثار الخوالد، والأعمال العظيمة يدرك أنه قد صاحب أصحابَها التوفيقُ، وشملتهم العناية، وأن نياتِهم فى ذلك كانت خالصة، أو قريبة من الخلوص والنقاء، وسيأتى لذلك كله تفصيل وأمثلة إن شاء الله تعالى.

والأمر بعد ذلك بيد الله تعالى، يمنح من شاء ما شاء، ويحرم من شاء ما شاء، جلّ جلاله. فلنسأل الله تعالى التوفيق، وأن يأخذ بأيدينا لما يحبه لنا ويرضى، فإن السعيد هو من شملته العناية الإلهية، وإن المحروم من حُرِمها.

ملحظ مهم:

هنا سؤال مهم يبرز في ختام هذا السياق وهو مناسب له ألا وهو:

هل يشترط للعمل النافع والأثر الجليل أن يكون صاحبه ذا عمر طويل ممتد؟ هذا سؤال مهم والإجابة عنه أن نعم، غالبًا هذا شرط في إيجاد الأثر؛ وهو أن يكون صاحب الأثر قد عاش مدة من الزمان مناسبة يرعى فيها عمله، ويسقي فيها بذرته، ويتعهدها حتى تبرز وتشتد وتقوى وتستوي على سوقها، هذا في الغالب شرط، وهذا مشاهد مُسْتَقْرَأ من أحوال الناس وتاريخ المصلحين والدعاة والعاملين، ولئن قيل لي: كم تقدر الحد الأدنى من العمر المناسب للعطاء والبذل المترتب عليهما الأثر الجليل فأقول: لابدّ أن يجاوز الأربعين قطعًا، فمن مات قبل الأربعين من عمره قَلّ أن يترك عملاً ذا أثر كبير وجليل، والحد المناسب هو أن يجتاز الخمسين، ولو عُمِّر إلى الستين أو السبعين لظهر لعمله -إن كان متميزًا- آثار جليلة، أما من يعيشون إلى المائة أو قريب منها فهؤلاء أهلٌ لترك الآثار العظيمة إن حسن عملهم وجدوا واجتهدوا.

لكن هناك استثناءات لكل ما سبق، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، سبحانه لا يُسأل عما يفعل جَلّ جلاله، فمن الاستثناءات الواضحة لمن مات قبل الأربعين وترك أثرًا جليلاً:

١- سيدنا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، فقد رفعه الله إليه فى الثالثة والثلاثين من عمره المبارك[١] وترك أثرًا ملأ الدنيا، وهو من أولى العزم من الرسل وأصغرهم صلوات ربى وسلامه عليهم.

٢- عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وقد توفى وهو فى الأربعين.

٣- سيبويه: عملاق النحو العربى، وتارك الأثر الجليل «الكتاب» الذى هو بمثابة دستور للنحاة واستفاد منه ملايين العلماء وطلبة العلم، مات ولم يبلغ الأربعين بل كان عمره يناهز الثالثة والثلاثين فقط، رحمه الله تعالى، ويُعد إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو[٢].

أما من ترك أثرًا جليلاً ومات وهو فى الأربعينات من عمره فيحضرنى مثالان عظيمان:

١- الإمام النووى، وسيأتى الحديث عنه فى ثنايا هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وقد مات وهو فى الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين من عمره المبارك.

٢- الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى، وقد مات وهو فى الثالثة والأربعين من عمره المبارك، وقد غير الدنيا، وشغل الناس، وترك آثارًا جليلة فى الأرض: رجالاً ومؤسسات وكتبًا ومشروعات تملأ جوانب الأرض، وهذا فضل الله تعالى يؤتيه من شاء من عباده.

---

(١) انظر: الآثار فى سنه فى «البداية والنهاية»: ٢/ ٩٥.

(٢) انظر: «الأعلام»: ٥/ ٨١.

المبحث الثالث:

فوائد العمل لترك الآثار الجليلة

عنوان المبحث: فوائد العمل لترك الآثار الجليلة، ولم أعنون للمبحث بـ: فوائد ترك الآثار الجليلة؛ لأن المرء قد يعمل طويلاً ثم لا يُكتب لعمله الأثر الجليل، وإنما يكفيه العمل ليأخذ الأجر إن شاء الله تعالى.

إن العمل لترك الأثر النافع له فوائد عظيمة: دنيوية وأخروية.

- **أما الفوائد الدنيوية فتتمثل فى التالى:**

١- سد الثغرات الكثيرة الموجودة فى ديار الإسلام:

وهى التى أرهقت المسلمين وجلبت لهم الأذى والعَنَت، والذل والهوان، وهى ثغرات سياسية، واقتصادية، وإعلامية، واجتماعية، وعسكرية، وتقنية، وعلمية، إلى آخر السلسلة الطويلة من الثغرات فى الجوانب المتعددة التى نعانى منها اليوم ونحن فيها عالة على غيرنا.

فكل عامل لسد تلك الثغرات -كلٌّ فى تخصصه- عامل فى شىء عظيم نافع، يحتاجه المسلمون، بل تشتد حاجتهم إليه.

٢- الحفاظ على الأوقات:

إن العامل لترك الأثر بجِد واجتهاد يسخر حياته لهذا الهدف، وأوقاته تكون معمورة بالعمل الصالح، فيتجنب سفساف الأمور ودناياها، ويرتقى إلى

المعالى والكمالات، فيكون بعيدًا عن المؤثرات الدنيوية التافهة التى ملأت حياة الناس ضعفًـا، وإخلادًا إلى الأرض، وهذا فى حد ذاته -ولو لم يصل المرء به إلى تحقيق أثر عظيم- هو مكسب كبير للشخص وحافظ له وأى حافظ.

٣- الترقى إلى الكمال:

إن العامـل لترك الأثر العظيم بحـاجة إلى اسـتدراك جملة مـن الأمور فى نفسه، فـتجده دائم الرغبة فى تغـيير صفاته وأحـواله إلى الأفضل والأحسن، عاملاً على اسـتكمال جوانب الشخـصية الإسلاميـة الجيدة، معـالجًا لجوانب النقص فى نفســه، لائمًا لها على التقـصير والإهمال، فـربما التحق بالدورات المتعـددة، وربما قرأ الأبحـاث المتخصـصة فى هذا الجانـب، وربما عَرّج على أصحاب الكمالات ينهل من معينهم، فالعامل إذًا لترك الأثر هو مصلِح لنفسه من حيث يـشعر أو لا يشـعر، وإصـلاح النفوس مقـصد مـهم من مقـاصد الشريعة.

٤- القدوة الحسنة:

إن العــامل لتــرك الأثر العظيم إنما هو قــدوة مــهمــة للعــاملين الذين قــد تتناوشهم المطالب التافهة، وقد يعرضون عن مواصلة العمل، فإذا رأوا العامل لترك الأثر ولحظوا جدَّه واجتهادَه رجــعت إليهم نفوسهم وتجدد لهم نشاطهم، وما أحــوج العامليــن اليوم إلى قــدوات قوية فى عــصر انتكس فــيه الكثـير، وضعفت فيه همم الكثير، وتخلّى فيه كثير من الدعاة والصالحين عن أهدافهم العليا إلى أمــور دنيا، ولذلك كنا نحن مأمورين بالاقــتداء بالنبى الأعظم ﷺ

لأنه معصوم فى هذا الباب لا يمكن أن يتطرق إليه ضعف، لكن النفوس جُبلت على اتباع من يعيش بينها، ويرون عمله وجِده واجتهاده.

٥- استيعاب جهود الدعاة:

إن العامل لترك الأثر العظيم يولد سلسلة من الأعمال المهمة؛ إذ قد ينشئ مؤسسات وهيئات تستوعب أعدادًا ضخمة من الدعاة والصالحين الذين لا تستوعبهم جماعاتهم، ولا يجدون فرصًا للعمل الدعوى المنتج الجيد، فيأتى صاحب المشروع العظيم، الراغب فى ترك الأثر الجليل ليحرك معه مئات وربما آلافًا من الدعاة الذين قعدت بهم هممهم أو مواهبهم عن العمل الدعوى، وفى هذا مكسب كبير؛ إذ أن مشكلة عدم استيعاب الطاقات المختلفة من أكبر المشكلات التى تهدد الدعاة اليوم.

وقد لا يولد صاحب الأثر الجليل الأعمال المهمة لكنه يولد الأفكار الكثيرة المساعدة على قيام الأعمال المهمة، وهذا مكسب كبير.

٦- إحياء الأمل وتجديد الثقة بانتصار الإسلام:

إن العامل لترك الأثر العظيم يحيى الأمل فى نفوس الكثيرين بعودة المسلمين إلى مجدهم، ويعظم اليقين والثقة فى نفوسهم بانتصار المسلمين، وهذا لأن أكثر المسلمين بحاجة إلى أعمال عظيمة محسوسة يستندون إليها فى بناء يقينهم وثقتهم وأملهم فى عودتهم إلى الريادة والسيادة من جديد، فيأتى صاحب العمل العظيم ليحيى فى نفوسهم هذه المعانى ويثبتهم، وهذا مطلب عظيم مهم.

مَن منا لم تحيا نفسه بالأمل واليقين لما رأى مشروع الشيخ أحمد ياسين وقد ملأ الدنيا وشغل الناس.

ومَن لا تحيا نفسه عندما يرى يعمل د. عبد الرحمن السميط فى إفريقيا، وجهده المتواصل فى صد الفاتيكان وحزبه.

وقد أتيت على ذكر الرجلين وعملهما فى ثنايا هذه الرسالة لكنى إنما أذكرهما هنا لمناسبتهما للموضوع.

٧- تيئيس الكافرين من الانتصار على هذا الدين:

إن العامل لترك الأثر العظيم يُحدث فى نفوس الكافرين قنوطًا من الانتصار على هذا الدين وأهله، ويكبتهم ويغيظهم، وربما أخافهم وغيّر مشروعاتهم ضد المسلمين، وفى هذا من الخير العظيم ما فيه.

٨- هداية من جنح من المسلمين:

إن العامل لترك الأثر العظيم قد يهدى به الله كثيرًا من ضُلاَّل المسلمين الذين لا يجدون فى هذا الدين إلا معانى العبادة الصرفة من صلاة وصيام، وهم يريدون تحقيق المجد فى هذه الدار والانتصار على أعدائهم، لكنهم ضلُّوا الوسيلة الصحيحة، وتخبّطوا طويلاً، فإذا رأوا صاحب المشروع العظيم وأثره فى دنيا الناس رجعوا إلى أنفسهم وأصلحوا مسيرتهم، ومثال على هذا: انفضاض كثير من الناس عن القومية واليسار والبعث لما رأوا مشروع الشيخ أحمد ياسين فى فلسطين ونجاحاته المتواصلة، ووقوفه سدًا منيعًا أمام إخوان القردة ونصرائهم فى الغرب والشرق.

فهذه بعض الفوائد المتحققة فى دنيا الناس من جراء العمل العظيم الجاد المتواصل لترك الأثر النافع.

الفائدة الأخروية:

وأما فائدته الأخروية فهى شىء عظيم، وبيان ذلك أن الدرجات العاليات فى الجنة إنما هى لمن أنعم الله عليه من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وقد سبقنا من هؤلاء العظماء المذكورين جملة هائلة من البشر يُعدُّون بمئات الملايين منذ آدم عليه السلام إلى الآن؛ إذ كم فى الأمم قبلنا من رُسل وأنبياء، وكم لهم من أصحاب وأتباع، وكم جرى فى الأرض من ملايين المعارك جرى فيها دم عشرات الملايين من الشهداء، وكم فى الأمم قبلنا من صالحين لا يعدُّون ولا يحصون، ثم كم فى أمتنا المحمدية الإسلامية من الشهداء والصالحين والأولياء والدعاة ممن لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولأقرِّب للقراء ذلك فإنى سأذكر جملة من الآيات والأحاديث التى تتناول الأمم السابقة، ثم أذكر ما يخص أمتنا الإسلامية.

قال الله تعالى:

١ - ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨].

٢ - ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [إبراهيم: ٩].

٣ - ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]

٤- ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وكم هنا للتكثير، والله تعالى -هنا- يقص خبر المؤمنين مع طالوت، وهذا منذ عهد بعيد.

٥- ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وفى قراءة عشرية صحيحة ﴿قُتل معه ربيون كثير﴾[١].

وقال تعالى مبيِّنًا حال أهل الدرجات العلى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٠- ١٤]

وهناك تفسيران لهؤلاء الآخرين الذين منهم قليلٌ قد حاز الدرجات العلى، فقد قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:

«قيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، وبالآخرين: هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير...[٢]، وهذا الذى اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هى خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون فى غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابَل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم -والله أعلم- فالقول الثانى فى هذا

(١) وهى قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو البصرى ويعقوب. انظر «النشر»: ٢/ ٢٤٢.

(٢) هو الشيخ الإمام محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبرى، الإمام العلم المجتهد. ولد سنة ٢٢٤ بآمُل طبرستان. كان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرة تصانيف، وكان من كبار أئمة الاجتهاد. استقر ببغداد وتوفى بها سنة ٣١٠ رحمه الله تعالى.
انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٢٦٧- ٢٨٢.

المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أى: من هذه الأمة... ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم، كل أمة بحسبها... والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة، لشرف دينها وعظم نبيها...»[1].

وعلى هذا فالسابقون فى هذه الأمة هم المقربون أهل الدرجات العلى من الأولين أهل الصدر الأول، ويلحقهم قليل من الآخرين، أى: ممن جاء بعدهم إلى يوم القيامة، وهذه الآية خطيرة شديدة على المتأخرين؛ إذ تبين أن عامتهم سيكونون من أهل اليمين، وأن قليلاً منهم فقط هم الذين سيلحقون بأهل الدرجات العُلى والمقرّبين فى أعلى جنات النعيم، فمَن منا اليوم سيكون مندرجًا مع الزمرة الأولى، والأوائل المقربين؟

ولمزيد من التوضيح لهذه القضية المهمة الجليلة فإنى أقول:

أمتنا اليوم نحو ألفٌ وثلاثمائة مليون، ونسبة تكاثر الأمة الإسلامية هى الأعلى فى الأرض اليوم -فيما أعلم- فكم يبلغ عدد المسلمين من الصدر الأول إلى اليوم؟ إنهم آلاف البلايين الذين لا يحصيهم إلا الله، وكم فيهم من شهيد وولى وصالح وعامل؟ إنها أعداد ضخمة جدًا ولا شك؛ إذ حسبك أن تتحدث عن أمة أرضها من الصين إلى المغرب، ومن تركيا إلى جنوب إفريقيا.

كل هذا الذى سبق بيانه إنما أُريد منه ضخامة عدد الصالحين والعاملين ممن قضى نحبه قبلنا، وإنهم يقدّرون -والله أعلم- بمئات الملايين، فأين يكون موقع مَن يريد أن يزاحمهم على الدرجات العاليات؟ وهل يستطيع؟

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٧/ ٤٩٠- ٤٩٣.

ويقول النبى ﷺ مبينًا عِظَم الجنة ودرجاتها: **«إن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله تعالى للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»**(١).

والذى بين السماء والأرض أمر مهول لا يعلمه إلا الله، حار فيه أهل الفلك، وضعفت قواهم عن متابعته، والأرقام التى تعبر عن المسافات بين الكواكب والمجرّات -ولا أقول بين السماء والأرض، إذ ذاك أمر لا سبيل للإحاطة به- أرقام لا يمكن قراءة أصفارها ولا التعبير عن أعدادها.

ويحثنا ﷺ أن نسأل الله الفردوس الأعلى من الجنة: **«فإذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة»**(٢).

وقال ﷺ: **«أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر.. والذين على أثرهم كأشد كوكب إضاءة»**(٣).

وقال ﷺ: **«إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم كما يتراؤون الكوكب الدرى الغابر فى أفق السماء من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم»**.

قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟

---

(١) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: كتاب البر والصلة: باب ما جاء فى قول المعروف، وقد أخرجه أيضًا الإمام أحمد فى مسنده بطرق يقوى بعضها بعضًا، فالحديث حسن إن شاء الله تعالى. انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٤٢٢، ٤٢٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح البخارى: كتاب بدء الخلق: باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة.

قال: «بلى، والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[1].

وقال ﷺ واصفًا تفاوت المراتب فى الجنة: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما...»[2].

وقد كان الصحابة يعرفون اختلاف الدرجات، لذلك قالت عائشة رضى الله عنها: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إلىَّ من نفسى، وإنك لأحب إلىَّ من أهلى، وأحب إلىَّ من ولدى، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإنى إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبى ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ولذلك كله كان الصحابى ربيعة بن كعب الأسلمى[3] رضى الله عنه موفَّقًا كل التوفيق عندما قال له النبى: «سَلْ».

فقال: أسألك مرافقتك فى الجنة.

فقال ﷺ: «أو غير ذلك؟».

---

(١) المصدر السابق.

(٢) صحيح البخارى: كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

(٣) ربيعة بن كعب بن مالك الأسلمىّ، أبو فراس المدنى. كان من أهل الصُفَّة، خدم النبى ﷺ وروى عنه، ليس له فى الكتب إلا هذا الحديث، مات سنة ٦٣ رضى الله عنه. انظر «تهذيب التهذيب»: ٣/ ٢٢٦- ٢٢٧.

فقال: هو ذاك.

فقال ﷺ: «**فأعِنِّى على نفسك بكثرة السجود**»[1].

فهذا -وهو صحابى- لم يضمن له النبى ﷺ مرافقته فى الجنة إلا إن عمل عملاً كبيرًا يستحق به ذلك، وكان هذا العمل هو كثرة الصلاة.

إذًا: كيف سيحصل عمال اليوم على الدرجات العاليات وقد سبقهم مئات الملايين من العاملين المجتهدين؟ وحال من سبقنا -فى الجملة- أفضل من حالنا، كيف لا وفيهم الصحابة والتابعون والسلف المبارك والخلف المتابع العامل.

الطريق لهذا هو: أن يعمل مريد الدرجات العاليات عملاً عظيمًا فى دنيا الناس بحيث يترك الأثر الجليل، وهناك أمر مطرد وقاعدة جليلة أنشأتها استنباطًا مما سبق:

(كل مَن يريد منزلة أعظم من منزلة أقرانه فى الآخرة عليه أن يعمل عملاً أعظم من عملهم فى الدنيا).

هذه القاعدة جليلة، إن فُهِمَت على وجهها ثم طُبِّقت تطبيقًا حسنًا عادت على الآخذ بها بأحسن العوائد، وأعظم الثمار، وهو متوافقة مع جملة من الآيات جاءت فى معناها:

قال تعالى:

١- ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب الصلاة: باب فضل السجود والحث عليه.

٢- ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]

٣- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

٥- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

كل هذه الآيات -وأمثالها كثير- توضح بجلاء أن الإنسان يرتقى الدرجات العاليات بعمله وكسبه، مقرونًا بفضل الله تعالى عليه، أما دخول الجنة فمحض فضل من الله تعالى.

قال النبى ﷺ: «لن يُنجىَ أحدًا منكم عمله».

قال رجل: ولا إياك يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «ولا إياى إلا أن يتغمّدنى الله برحمة منه وفضل»[1].

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، وأخرجه الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب صفات المنافقين: باب «لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى».

ومعنى يتغمدنى الله برحمة أى يلبسنيها ويسترنى بها، وذلك مأخوذ من غِمْد السيف، لأنك إذا أغمدته فقد ألبسته الغمد وغشّيته به. انظر «إكمال المعلم بفوائد مسلم»: ٨/ ٣٥٣.

وفى رواية: «**لا يُدخِل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة من الله**»[1].

- **إذًا: دخول الجنة محض فضل، والدرجات العاليات فضل وعدل.**

فإذا عُلم هذا فلابد لطالب الدرجات العلى فى زماننا هذا من تشمير، وعمل متواصل ينال به تلك الدرجات، وهذا العمل الكثير والتشمير سينشأ عنه -إن شاء الله- أثر جيد باقٍ فى دنيا الناس.

- **إذًا: فائدة ترك الأثر الأخروية إنما هى تحصيل الدرجات العاليات، والفوز بالفردوس الأعلى من الجنة، واللحاق بركب العاملين العظماء من الصدر الأول فمَن بعدهم.**



(١) المصدر السابق.

المبحث الرابع:

كيفية ترك الآثار المحمودة الجليلة

وهو لب البحث، وخلاصة الأمر، ويقوم على أركان أربعة عظيمة لابد لكل من أراد أن يترك أثرًا عظيمًا أن يقيمها في نفسه، ويتحقق بها، لعل الله أن يرزقه ترك الأثر الحسن والعمل النافع، وهذه الأركان هي:

١- حُسن الصلة بالله تعالى.

٢- الصفات النفسية الجيدة.

٣- الهدف العظيم.

٤- العلم الواسع والثقافة المناسبة.

وهذه الأركان هي كأركان البنيان، إن اختلّ منها ركن تهدّم وتقوّض. والملاحظ أن الركن الأول هو حجر الزاوية في كل عمل. والركن الثاني أمر لا بد منه لكل طالبٍ أمرًا عظيمًا. والركن الثالث هو الضامن للمرء ألا يضيع عمره ويتفرق جهده في الصغائر والمرجوحات. والركن الرابع تتفاوت فيه الهمم والأقدار، وسيأتي في المبحث الخامس -إن شاء الله تعالى- تفصيلٌ لحال هذه الأركان الأربعة إن ضعفت أو اضمحلت، لكن سآتي الآن على تفصيل شأن هذه الأركان وتقريرها.

***

الركن الأول: حُسن الصلة بالله تعالى

وهو الأمر العظيم، والشىء الجليل، الذى إن تحقق للعبد فاز فوزًا عظيمًا، وشملته العناية، وسهل أمره، وتذللت الصعاب بين يديه، وقفز الحواجز، وتخطى العقبات. والناس فى ذلك متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، لكن لابد لمريد العظائم أن يفهم أنه لابد أن يلتزم طرق الباب، والتذلل والانسكار على الأعتاب، وأن ذلك ديدن الرسل العظام والأنبياء الكرام، ويُفهم هذا المعنى تمام الفهم فى ضوء حديث عظيم جدًا، وجليل ومؤثر، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى قال: «مَن عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه...»[1].

الله أكبر، إن هذا الحديث عظيم جليل، يبيِّن تمام التبيين ما نحن بصدده، فالذى يتقرّب إلى الله تعالى ويُحسن صلته به، ويديم التقرُّب -كما يدل عليه الفعل المضارع: **«وما يزال عبدى يتقرب إلىّ»** سيدخل ساحة المحبة الإلهية، فإذا ولجها فلا تسل عن الكرم الإلهى الذى سيناله، ولا عن العناية التى ستشمله: **«كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها،**

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: كتاب الرقاق: باب التواضع.

ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» فهذه معية رائعة جليلة، ومنّة عظمى كبيرة أن يكون الله تعالى مع عبده على هذا الوجه، فيحوطه في سمعه وبصره وجوارحه، فلا يعود يسمع إلا الشيء الحسن، ولا يقصد ببصره إلا الحسن، ولا يفعل بجوارحه إلا الأمور الحسنة، وهل هو هذا فقط؟ لا بل هناك أمر أعظم وأجَل وأعلى: **«وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»** فأي مطلب مهما عظم فهو مجاب، وأي مخاوف يخافها فهي أمان.

- إذًا: على طالب الأثر العظيم أن يُحسن صلته بالله تعالى فإنه سيجيبه إلى سؤله، وينيله مطلوبه ومراده مهما رآه عظيمًا، أو بعيد المنال، أو صعب القِطاف.

وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في قوله ﷺ: **«كنت سمعه..»** عدة أقوال منها:

١- أن العبد يصير مشغولاً بكليته بالله تعالى فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيه، ولا يرى ببصره إلا ما يأمره به.

٢- إن الله تعالى يكون له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه.

٣- أن العبد لا يعود يسمع إلا ذكر الله تعالى، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوته، ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاه تعالى ورجله كذلك.

ثم ذكر ابن حجر عن أحد العلماء أنه: قد اتفق العلماء ممن يُعتد بقوله إن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته حتى كأنه سبحانه يُنزِل نفسه من عبده منزلة الآلات التى يستعين بها.

٤- توفيق الله لعبده فى الأعمال التى يباشرها بهذه الأعضاء، ويحفظ عليه جوارحه ويعصمه عن مواقعة ما يكرهه الله تعالى من الإصغاء بسمعه إلى اللهو، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعى إلى الباطل برجله.

ولعل هذا القول الرابع هو أقرب الأقوال، وإن كانت الأقوال الباقية متقاربة.

ثم قال: المراد بالنوافل جميع ما يندب إليه من الأقوال والأفعال[1].

والنوافل فى الإسلام أمر عظيم، وواسع شامل يشمل حركات العبد وسكناته، إذا كانت بنية صالحة وكانت مباحة على الأقل، فالله تعالى حينئذ من كرمه وفضله يقلبها عبادات وتصير له حسنات.

وكبار المؤثرين على مدار التاريخ كانوا حسنى الصلة بالله، على تفاوت أقدارهم فى هذا، والأمثلة أكثر من أن تُحصر، لكن حسبى أن أعرج على شىء منها ليعظم هذا الكتاب بذكر أولئك الأطهار، ولنعلم عظم قدر الصلة الحسنة بالله تعالى وما يعود على العبد من فوائد:

(١) «فتح البارى»: ٢٤/١٣٩-١٤١.

١- إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم:

كان ﷺ على درجة عظيمة من التقرُّب وحُسن الصلة بالله تعالى. قال جلّ من قائل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

والأوّاه: المتضرّع الدعَّاء.

وقد كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام كثير الدعاء[١]، وكثرة الدعاء والتضرع فيه والإخبات دلالة على حسن الصلة بالله تعالى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠].

والقانت: هو الخاشع المطيع[٢].

ولله كم كان الخليل مطيعًا باذلاً، مضحيًا بكل ما عنده في سبيل إرضاء الله تعالى.

٢- نبينا الأعظم محمد ﷺ:

وشرح عظم صلته بالله تعالى يحتاج إلى كراريس، لكن حسبنا أمثلة تناسب إيجاز هذه الرسالة:

- كان ﷺ إذا صلّى يُسمع له أزيز كأزيز المِرْجل.

والأزيز: الصوت، والمِرْجل: القدر، أي أنه ﷺ كان إذا صلّى خشع حتى صار لجوفه صوت كغليان القدر إذا اشتد[٣].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٤/ ١٦٢.
(٢) المصدر السابق: ٥٣٠.
(٣) أخرجه النسائي في سننه.

وفى رواية: كأزيز الرَّحَى[1].

- وقد قال على رضى الله عنه: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح ﷺ»[2].

وعن أنس رضى الله عنه قال: «لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح استشرفهُ الناس، فوضع رأسه على رحله متخشعًا»[3].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه: «دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح حتى وقف بذى طوى وتوسط الناس، وإن عُثْنونه[4] ليمس وسط رحله أو يقرب منها تواضعًا لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثم قال: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»[5] ولكم أن تخيلوا معاشر القراء رسول الله ﷺ يدخل مكة فاتحًا ووجهه الشريف يمس ظهر دابته كهيئة الساجد الشاكر، هذه صورة عجيبة حقًا على حسن الصلة بالله تعالى.

وحياته مثال حى تطبيقى على حُسن الصلة بالله تعالى فى جميع الجوانب والشئون.

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه.

(٢) أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه.

(٣) رواه أبو يعلى والحاكم بسند قوى.

(٤) العثنون: ما تحت الشفة السفلى من الشعر.

(٥) رواها الواقدى فى السيرة، وكل الآثار السابقة الأربعة نقلتها من كتاب «سيدنا محمد رسول الله»: ٣٠٩، ٣١٠.

٣- أمثلة متفرقة:

ولم تحظَ أمة من الأمم بعشر معشار ما حظيت به أمتنا من العظماء والفضلاء، الذين حسنت صلتهم بالله تعالى فحسنت أعمالهم، وإليكم أمثلة يسيرة من البحر الخضم انتقيتها من سِيَر لا يعرفها أكثر القراء لكن كان لهم أعمال وآثار رضى الله عنهم:

- فهذا الإمام العلامة، شيخ الإسلام، الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن محمد القرشى التيمىّ ثم الأصبهانى الملقّب بقِوام السُّنّة، المتوفى سنة ٥٣٥، حكى عنه أحد أصحابه أنه لا يعلم أن أحدًا عاب عليه قولاً ولا فعلاً، ولا عانده أحد إلا ونصره الله، وكان نَزِهَ النفسِ عن المطامع، لا يدخل على السلاطين ولا على من اتصل بهم، وكان له تعبُّد وأوراد وتهجُّد، ولما مات ولده وجلس للتعزية جدّد الوضوء فى ذلك اليوم نحو ثلاثين مرة، يصلى عقب كل وضوء ركعتين[١].

- وهذا الشيخ الإمام، العالم الفقيه المحدث، شيخ الإسلام، فخر العراق عبدالوهاب بن على -المعروف بابن سُكينة - البغدادى الشافعى، المتوفى سنة ٦٠٧، حكى عنه أحد تلامذته[٢] قائلاً:

شيخنا ابن سُكينة شيخ العراق فى الحديث والزهد وحُسن السمت وموافقة السُّنّة والسلف، عُمِّر حتى حدّث بجميع مروياته، وقصده الطلاب من البلاد، وكانت أوقاته محفوظة، لا تمضى له ساعة إلا فى تلاوة أو ذكر أو تهجُّد أو

(١) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٤٠٤.

(٢) وهو العالم الكبير ابن النجار صاحب ذيل تاريخ بغداد.

تسميع، وكان كثير الحج والمجاورة والطهارة، يديم الصوم غالبًا، ويستعمل السنّة في أموره، ويحب الصالحين، ويعظِّم العلماء، ويتواضع للناس، ظاهر الخشوع، غزير الدمعة، وكان الله قد ألبسه رداءً جميلاً من البهاء، وحُسن الخلقة، وقبول الصورة، ونوع الطاعة، وجلالة العبادة، وكانت له في القلوب منزلة عظيمة، ومن رآه انتفع برؤيته، فإذا تكلم كان عليه البهاء والنور، لا يُشبع من مجالسته، لقد طفت شرقًا وغربًا ورأيت الأئمة والزهاد، فما رأيت أكمل منه ولا أكثر عبادة ولا أحسن سَمْتًا[1].

- وهذا الشيخ الإمام العالم، الزاهد القدوة، عماد الدين إبراهيم بن عبدالواحد بن علي المقدسي الجُمّاعيلي، المتوفى سنة ٦١٤، كان يجلس في جامع البلد من الفجر إلى العشاء يقرىء القرآن والعلم، لا يخرج إلا لحاجة، فإذا فرغوا اشتغل بالصلاة، وكان من خيار الناس ومن أعظمهم نفعًا، وأشدهم ورعًا، ومن أكثرهم صبرًا على التعليم، وكان داعية إلى السُّنّة، أقام بدمشق مدة يعلّم الفقراء ويقرئهم، ويطعمهم ويتواضع لهم، وكان من أكثر الناس تواضعًا واحتقارًا لنفسه وخوفًا من الله تعالى، كثير الدعاء والسؤال لله تعالى، يطيل السجود والركوع بخشوع وخضوع، يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان إذا دعا تشهد القلوب بإجابة دعائه من كثرة ابتهاله وإخلاصه[2].

والسؤال المهم الكبير: هؤلاء الأئمة العظماء أصحاب الأعمال العظيمة والآثار الجليلة مَن يعرفهم منا؟ ومَن أطلع على سيرهم الرائعة وأخبارهم الجليلة؟

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٥٢٦.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٥٣٢ - ١٥٣٣.

إن الجواب يورثنى حسرة كبيرة. وإنا لله وإنا إليه راجعون على قلّة عنايتنا بأخبار ساداتنا.

* * *

الركن الثانى: الصفات النفسية الجيدة

وهى مجموعة صفات لابد من توافرها كلها أو أغلبها ليعظم العمل والأثر، فمن ذلك:

أ- الهمة العالية:

وهى على رأس تلك الصفات المهمة، لأن مَن علت به همته عظم عمله، وحسن أثره، وارتفع قدره، ومَن سفلت به همته نقصت منزلته، وضعف عمله وأثره، مهما كان له من مواهب وملكات، ومهما حاز من قدرات، وكم رأينا من أشخاص أذكياء، أصحاب قدرات عظيمة ومواهب جليلة، قد قعدت بهم همتهم عن تحصيل المعالى، وأخلدوا إلى الأرض فشدتهم بثقلها وجواذبها، وكم رأينا مقابل هؤلاء أشخاصًا أصحاب قدرات متوسطة، وملكات ومواهب ليست متميزة، لكنهم بهمتهم العالية تجاوزوا نقصهم، وأصبحت لهم آثار نافعة وأعمال جليلة.

والأنبياء والرسل كلهم أصحاب همّة عالية وعمل دؤوب، وكل مَن اقتفى أثرهم راغبًا اللحاق بهم كان من أهل الهمم العالية، وإليكم مثالاً ربما خفى على كثير من القراء، اخترته من البحر الخضم الهائل من سير أهل الهمّة رضى الله عنهم، ألا وهو بَقِيُّ بن مَخْلَد الإمام الكبير المتوفى سنة ٢٠٦ الذى

كان أول من نشر الحديث بالأندلس نشرًا واسعًا، وكان إمامًا مجتهدًا صالحًا، ربانيًا صادقًا مخلصًا، رأسًا فى العلم والعمل، عديم المثل، منقطع القرين، كان يصلى بالنهار مائة ركعة، كثير الجهاد، رابط اثنتين وسبعين غزوة، كان قد قسم أيامه على أعمال البر، فكان يخرج كل ليلة إلى مسجده فى الثلث الأخير فيصلى صلاة طويلة جدًا، ثم ينقلب إلى داره فيجدد الوضوء، ثم يخرج إلى مسجده لصلاة الصبح، وإذا صلّى الصبح قرأ حزبه من القرآن فى المصحف، يُدرّس القرآن، وقد اجتمع فيه الطلبة فيُقرئهم، فإذا فرغ صلّى إلى الظهر، ثم يؤذّن، فإذا فرغ من الصلاة أقرأ الطلاب إلى العصر، وكان يصوم الدهر إلا الجمعة، ثم يصلى ويقرىء الطلبة، وربما خرج آخر النهار إلى القبور فيقعد بينها يبكى ويعتبر، فإذا غربت الشمس أتى مسجده فصلّى، ثم يرجع إلى بيته فيفطر، ثم يتحدث مع جيرانه فى أمور دينهم ودنياهم، ثم يصلى العشاء، ويدخل إلى أهله فيحدثهم، ثم ينام نومة قد أخذتها نفسه، ثم يقوم، وكان هذا دأبه إلى أن مات.

وكان جَلْدًا قويًا على المشى، مشى مع ضعيف فى مظلمة إلى إشبيلية -وكان يسكن قرطبة- ومشى مع آخر إلى إلبيرة، ومع امرأة ضعيفة إلى جيّان[1].

الله أكبر، هؤلاء هم أهل الهمّة رضى الله عنهم، ما أبعدنا عن حالهم وهممهم، ثم نرجو أن نصنع للإسلام والمسلمين ما صنعوا، وأن نترك من الآثار ما تركوا!! ولو سألنا أهل العصر عن بَقِىّ بن مَخْلد فكم من الناس يعرفه؟ بل كم من طلاب العلم والدعاة والفضلاء يعرف هذا الإمام العظيم؟! إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩٧٥.

وإليكم معشر القراء الكرام بعض الأمثلة على أصحاب الهمم العالية الذين تركوا الآثار الجليلة:

- هذا الإمام مالك بن أنس رحمه الله إمام دار الهجرة قد روى عنه الإمام ابن القاسم[(١)] هذه الحادثة: «كنت آتى مالكًا غلسًا[(٢)] فأسأله عن مسألتين، ثلاث، أربع، وكنت أجد منه انشراح الصدر، فكنت آتى كلّ سحر، فتوسدت مرة فى عتبته، فغلبتنى عينى فنمت، وخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر به، فركضتنى سوداء له برجلها وقالت لى: إن مولاك لا يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة ما صلّى الصبح إلا بوضوء العَتَمَة[(٣)]، ظنّت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه»[(٤)].

- وكان الإمام ابن عقيل الحنبلى[(٥)] يقول:

---

(١) عالم الديار المصرية ومفتيها، أبو عبدالله عبدالرحمن بن القاسم العُتَقى بالولاء، المصرى، صاحب الإمام مالك. كان ذا مال ودنيا فأنفقها فى العلم، وله قدم فى الورع والتأله، ولد سنة ١٣٢ وتوفى سنة ١٩١ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٩/ ١٢٠-١٢٥.

(٢) انظر إلى هذه الهمة العالية إذ يأتيه قبل الفجر، وفى أيامنا قلّ من يجلس مستيقظًا بعد صلاة الفجر إلى أن يصلى ركعتين بعد ارتفاع الشمس قدر رمح، وإذا طلب من أحد الدرس بعد الفجر يعتذر بأنه موعد غير مناسب، وهذا حتى فى أيام الإجازات التى ليس فيها عمل صباحى مبكر يحتاج إلى راحة.

(٣) أى العشاء.

(٤) «ترتيب المدارك»: ٣/ ٢٥٠.

(٥) الإمام العلامة البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء على بن عقيل بن محمد البغدادى الحنبلى المتكلم، صاحب التصانيف. ولد سنة ٤٣١، وخالط المعتزلة فانحرف عن السنّة، وكان يتوقد ذكاء، بحرُ معارف، وكان كريمًا، توفي سنة ٥٠٣، وكان الناس فى جنازته يفوقون الحصر. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٤٤٣-٤٥١.

«إنى لا يحل لى أن أضيِّع ساعة من عمرى، حتى إذا تعطل لسانى عن مذاكرة ومناظرة، وبصرى عن مطالعة، أعملت فكرى فى حال راحتى وأنا مستطرح»(١).

- ووصف الإمام النووى(٢) حياته لتلميذه أبى الحسن ابن العطار(٣) فذكر له أنه كان يقرأ كل يوم نحواً من اثنى عشر درسًا على مشايخه شرحًا وتصحيحًا: درسين فى «الوسيط»، ودرسًا فى «المذهب»(٤)، ودرسًا فى «صحيح مسلم»، ودرسًا فى «اللُمَع»(٥) لابن جنّى(٦)، ودرسًا فى إصلاح المنطق، ودرسًا فى التصريف، ودرسًا فى أصول الفقه، ودرسًا فى أسماء الرجال، ودرسًا فى أصول الدين، قال: وكنت أعلّق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله تعالى فى وقتى»(٧).

---

(١) «الوقت هو الحياة»: ١٧٨.

(٢) يحيى بن شرف بن مُرِّى، الإمام المشهور، توفى سنة ٦٧٦ عن ٤٥ سنة. انظر ترجمته فى «فوات الوفيات»: ٤/ ٢٦٤-٢٦٨.

(٣) على بن إبراهيم بن داود، أبو الحسن، من أهل دمشق، ولد سنة ٦٥٤، وكان أبوه عطارًا وجده طبيبًا، ألف مؤلفات عديدة، وباشر مشيخة المدرسة النورية ٣٠ سنة، توفى سنة ٧٢٤ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٤/ ٢٥١.

(٤) كتاب فى الفقه الشافعى لأبى إسحاق الشيرازى، شرحه الإمام النووى فى كتابه «المجموع».

(٥) كتاب فى النحو.

(٦) إمام العربية، أبو الفتح عثمان بن جنى الموصلى، صاحب التصانيف، له نظم جيد، توفى سنة ٣٩٢ عن قرابة ٦٣ سنة رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ١٧-١٩.

(٧) «تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٤٧.

- وقال أبو الحسن العطّار: «ذكر لى شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يُضيع له وقتًا لا فى ليل ولا فى نهار إلا فى اشتغال حتى فى الطرق، وأنه دام على هذا ست سنين، ثم أخذ فى التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق.

قلت[1]: مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه، والعمل بدقائق الورع، والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها»[2].

- وقال على بن الحسن بن شقيق المروزى: «قمت لأخرج مع ابن المبارك[3] فى ليلة باردة من المسجد، فذاكرنى عند الباب بحديث، أو ذاكرته، فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذّن للصبح»[4].

- وقال محمد بن على السلمى[5]:

«قمت ليلة سحرًا لآخذ النوبة على ابن الأخْرم[6]، فوجدت قد سبقنى ثلاثون قارئًا، ولم تدركنى النوبة إلى العصر»[7].

---

(١) أى الذهبى.

(٢) «تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٤٧.

(٣) عبدالله بن المبارك المروزى الحنظلى -بالولاء- ثقة ثبت، فقيه عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير. توفى سنة ١٨١ وله ثلاث وستون سنة. انظر «التقريب»: ٣٢٠.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٧.

(٥) لم أقف له على ترجمة.

(٦) مقرىء دمشق، العلامة أبو الحسن محمد بن النضر بن مُرّ الربعى الدمشقى، ابن الأخرَم، كان يحفظ كثيرًا من التفسير ومعانيه، وكانت له حلقة عظيمة بجامع دمشق، توفى رحمه الله تعالى سنة ٣٤١ وعاش ٨١ سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٥٦٤-٥٦٦.

(٧) المرجع السابق: ٢/ ١٢٤٥.

وهذا الخبر كلما قرأته تعجبت من همّة أولئك الأطهار، جعلنا الله منهم.

- وأما الإمام أبو القاسم بن عساكر[1] فقد قال عنه أبو المواهب بن صَصْرى[2]:

«لم أرَ مثله، ولا مَن اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة، من لزوم الصلوات فى الصف الأول إلا من عذر، والاعتكاف فى شهر رمضان وعشر ذى الحجة، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، قد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة وأباها بعد أن عُرضت عليه، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لا تأخذه فى الله لومة لائم»[3].

- وهذا الشيخ كمال العباسىّ الكجراتىّ الهندى[4]، كان «من عوائده أنه كان يستيقظ فى الليل إذا بقى ثلثه فيغتسل ويتهجد، ويقرأ سبعة أجزاء من

(١) الإمام العلامة، الحافظ محدث الشام، ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله الدمشقى الشافعى، ولد سنة ٤٩٩، وغلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ فى طلبه، ورحل ولقى المشايخ، وكان دينًا، صنف التصانيف المفيدة أجلها «تاريخ دمشق»، توفى رحمه الله تعالى سنة ٥٧١ بدمشق. انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٠٩-٣١١.

(٢) الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى الربعىّ التغلبى الدمشقى، أبو المواهب، من حفاظ الحديث، وكان محدث دمشق، له بعض المصنفات، توفى سنة ٥٨٦ عن قرابة ٥٠ سنة رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٢/ ٢٢٥.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٣٣٢.

(٤) الشيخ العالم الكبير المفتى كمال محمد العباس الكجراتى الهندى، أحد العلماء المبرزين فى الفقه والأصول والعربية، ولد ونشأ بأحمد آباد، واشتغل بالعلم من صباه حتى برع وفاق أقرانه، وولى الإفتاء فاشتغل بالفتيا والتدريس ٣٠ سنة، توفى سنة ١٠١٣. انظر «الإعلام بمن فى تاريخ الهند من الأعلام»: ٥/ ٣٤٢-٣٤٣.

القرآن في الصلاة، ثم يدعو بالأدعية المأثورة، ثم يذكر الله سبحانه، ثم يصلي الفجر، ثم يشتغل بتلاوة القرآن إلى صلاة الإشراق، ثم يصلي ويجلس للدرس والإفادة، ثم يتغدى ومعه جماعة من المحصلين عليه، ثم يصلي الظهر، ثم يقيل ساعة، ثم يجلس للافتاء فيشتغل به إلى العصر، ثم يصلي، ثم يشتغل به[1]، ثم يصلي ويُقبل على أصحابه، فيتحدث معهم إلى العشاء، ثم يدخل في حجرته ويشتغل بمطالعة كتبه التي يدرسها إلى الثلث الأول من الليل، ثم يدخل في المنزل، وكان من الخامسة عشرة من سنه إلى أربع وخمسين صرف عمره على هذا الطريق»[2].

- وقال أبو العباس ثعلب[3]:

«ما فقدت إبراهيم الحربي[4] من مجلس لغة ولا نحو من خمسين سنة»[5].

---

(١) أي بالافتاء.

(٢) «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»: ٥/ ٢٤٢-٣٤٣.

(٣) العلامة المحدث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد، الشيباني بالولاء، البغدادي، صاحب التصانيف، ولد سنة ٢٠٠، وكان ثقة حجة، دينًا صالحًا، مشهورًا بالحفظ، عُمر وأصم، وصدمته دابة فوقع في حفرة، ومات فيها سنة ٢٩١ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٥-٧.

(٤) الشيخ الإمام، الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم البغدادي الحربي، صاحب التصانيف. ولد سنة ١٩٨، كان إمامًا في العلم، رأسًا في الزهد، عارفًا بالفقه، بصيرًا بالأحكام، حافظًا للحديث، مميزًا للعلة، صنف كتبًا كثيرة، توفي سنة ٢٥٨ رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ٣٥٦ - ٣٧٢.

(٥) نزهة الفضلاء: ٢/ ٩٨٢.

ب- الثبات:

وهو رأس الأمر، وعمـود عمل كل راغب بترك الأثر، إذ لا يمكن هذا إلا بثبات راسخ شامخ.

لكلٍّ إلى شَأْو العُلى حـركـاتُ ولكنْ قليـلٌ في الرجـال ثبـاتُ

وعلة أكثر العاملين اليوم قلة الثبات، والتذبذب والتردد والانسلاخ والانتكاس، وهذا يضعف العمل، بل ربما يُذهبه ويذهب أثره في الناس، بينما صاحب الثبات ولو قلّ عمله لابد أن يظل له أثر في دنيا الناس.

ومريد ترك الأثر العظيم النافع لابد أن يعلم أن الثبات عدة له عظيمة؛ لأن المصاعب التي ستعترضه شديدة، والحواجز والعقبات كثيرة، فمن لم يوطن نفسه على الثبات والعمل الدائم المتصل فإنه سرعان ما سينهزم من الساحة، ويخلد إلى السكون والراحة.

ومن قلة الثبات عند العاملين: نقله من مشروع إلى مشروع، وهذا يذهب بأثره أدراج الرياح، إذ للأثر العظيم النافع الباقي في الأرض شرط مهم وهو أن يسقيه صاحبه بجهده طيلة حياته، ويرعاه حتى يستوي على سوقه، ويبلغ درجة يستطيع بها إذا تركه صاحبه إلى الدار الآخرة أن يقوم بنفسه، وأن يستعصي على عاديات الزمان، أما إن ظل العامل سنة هنا وسنتين هناك وثلاثًا هنالك، ثم ظل يتنقل هكذا سائر عمره، فكيف نرجو له أثرًا نافعًا وعملاً سائغًا؟.

أعرف صاحبًا لى فى سنِّى بدأ مدرسًا -وهذا حسن جدًا- لكنه خرج من التدريس قبل أن يحدث فيه الأثر المطلوب، ثم تنقل فى المؤسسات الإغاثية والخيرية فى الداخل والخارج، وقل أن يمكث فى عمل ما سنتين، وأُعير للتدريس فى الخارج، واستمر هكذا مستمرئًا عمله، راضيًا بصنيعه، ثم قابلته أخيرًا فأخبرنى أنه يُعِد العدّة لعمل إسلامى فى إحدى جزائر البحر التى لم يسمع بها أحد. فسألته: لماذا؟ قال: لأن المسلمين فيها قليل جدًا (لا يبلغون الثلاثمائة) وهم ضلاَّل أضلهم القاديانية، ويريد أن يبنى لهم مسجدًا، ويجمع لهم التبرعات، فقلت له: ليتك أخبرتنى بهذا العمل، لأنه لا يصلح لك، فبلاد العالم الإسلامى التى تحتاج إلى أعمال عظيمة أكثر بكثير وأهم من هذه الجزيرة المنقطعة التى صرفت إليها همتك.

لكن هكذا حال من يتنقل من مكان إلى مكان لا يكاد يثبت، كلما لاحت له فرصة مرجوحة أو عمل يخاله نافعًا سارع إليه، وأنا لا أزعم أنه بعمله هذا لن ينال أجرًا، معاذ الله، إنما أناقش موضوع التشتت وعدم الثبات الذى يعانى منه كثير من العاملين.

وإليكم معشر القراء الكرام مثالاً على رجل ثبت على عمل واحد فقط قرابة سبعين سنة لكنه عظيم، فأثمر ثباته هذا ثمرة جليلة، ولا غرو فالثبات على الهدف العظيم، بهمة عالية، واطمئنان إلى صحة العمل، ينتج أعظم الآثار، وقد ذكر قصته الأستاذ سيد عفانى فقال:

«هذا الرجل المبارك الأمة المهندس محمد توفيق بن أحمد، مؤسس «دار تبليغ الإسلام» أثناء إقامته فى سويسرا فى بعثة هندسية (١٩٢٩-١٩٣١) يعمل

فى صمتٍ منذ خمسة وستين عامًا، ومحرر مجلة البريد الإسلامى وصاحب امتيازها، والذى أسلم على يده أربعة آلاف من الأجانب، منهم قسيس يعمل أستاذًا للأدب فى جامعة الفاتيكان، وقاضى جزيرة سان موريس، والقائد الهولندى «كلنجر» الذى أسمى نفسه «محمد توفيق كلنجر» تيمُّناً باسم صديقه الأستاذ محمد توفيق.

أصدر بداية مجلة اسمها «التقوى» وطبع من العدد الأول منها ألف نسخة، ووزعها فانتشرت بحمد الله انتشارًا واسعًا، وكان يكتب عليها -كما يكتب على مجلة «البريد الإسلامى»: «اقرأها وأعطِها لغيرك مشكورًا».. وواصل إصدار «التقوى» حتى سنة ١٩٣٥.

ولما رُشح فى بعثة هندسية إلى سويسرا عام ١٩٢٩، يقول: «وهناك شعرت بحاجة الأوروبيين للحصول على فكرةٍ صحيحة وموضوعية عن الإسلام، ومن ثم بدأت العمل لتبليغ الإسلام «دار تبليغ الإسلام» وهو اسم معنوى كنت أعمل من ورائه ولازلت، وكانت كل الرسائل والإعلانات التى أبعث بها إلى الصحف الأوروبية، أو أنشرها من خلالها باسم: محمد توفيق محرر مجلة «التقوى» فى القاهرة، وكنت أتسلّم كثيرًا من الرسائل على المنزل الذى كنت أسكن فيه، وبالطبع كنت أرد عليها، وفى كل مكانٍ كنت أتواجد[1] فيه أجد كثيرًا من الأسئلة المتعلقة بالإسلام والمسلمين، وكانت صورة الإسلام مشوَّهة من أعداء الإسلام والمستشرقين، ومن حَسَنِى النية الذين يصدقون كل

(١) هذه الكلمة خطأ شائع على ألسنة الناس، والصحيح: أوجد أو أكون أو كلمة نحوها؛ لأن معنى التواجد يدور على الطرب.

ما يقرأون فيعتقدون أن الإسلام بهذه الصورة، وذات مرة قام أحد المبشرين واسمه روبلى، أو دكتور روبلى، مفتش التبشير فى أسوان فى ذلك الوقت، وكان بصدد جمع تبرعات للمساعدة فى خدمات المستشفى التبشيرى فى مصر، ونشر فى الصحف أنه سيلقى محاضرة عن مصر وفلسطين، وحدد موعدها وحث الجمهور لحضورها، وكان مكان المحاضرة فى أحد المعابد الأوروبية، وتصورت وقتها أنه سيتعرض فى محاضرته للإسلام، وفعلاً تناول فى حديثه أشياء كثيرة تمس الإسلام، وتحدث فى مواضيع كثيرة عن العرب وفلسطين ومصر، وقد حمل الرجل صورًا معه إلى المحاضرة، تسىء إلى الإسلام وإلى مصر أبلغ إساءة، ومن الصور التى عرضها بالفانوس فى هذا الوقت، صورة جمل، وسيدة تركب خلف الرجل فى المكان المنحدر من مؤخرة الجمل تكاد تسقط، ليوحى بهذا أن معاملة الرجل للمرأة فى الإسلام سيئة. ثم قال: هل تتخيلون كيف يتم الزواج هناك؟! -القول للدكتور روبلى- المرأة عند المسلمين تباع، فهناك التى يشتريها الزوج عند الزواج بعشرةِ جنيهات[1]، وأخرى بعشرين، وثالثة بخمسين، كأنك تشترى عنزًا أو جاموسة، يمكنك أن تشترى المرأة، ويمكنك أن تتزوج ممن تعجبك بأى عدد تشاء، ولم يحدد الدكتور روبلى عدد النساء بأربع كما هو معروف!!

وبعد هذا عرض د. روبلى صورة أخرى لرجلين يمشيان، أحدهما معه مغزلة يغزل به وأمامه زوجه تحمل حملاً ثقيلاً من القمح، قدره د. روبلى حسب الصورة بأنه أربع كيلات، وقال للمشاهدين الذين يشاهدون الصورة:

---

(١) إشارة إلى المهر فى الثلاثينيات من القرن العشرين.

هل تعرفون كم تحمل هذه المرأة؟ إنها تحمل ما يساوى أربع كيلات من القمح، وبالرغم من ذلك يقول زوجها لصاحبه: سأطلقها، بالرغم من تفانيها وتعبها فى خدمته.

وبعد ذلك قال لهم: الآن سأعرض عليكم صورة لأكبر مستشفى رمدى فى مصر فى القاهرة، وجاء بصورة ضريح السيدة نفيسة، وتظهر فيه حلقات فى جوانب الضريح، وجاء بأناس تظهر عيونهم بصورة قبيحة جدًا، وقد وضعت عليها طبقاتٌ من الطين بشكل قبيح، تتقزز منه العين، وقال: هذه الطبيبة -السيدة نفسية- من نسل النبى ﷺ، أُرسلت إلى مصر لتعمى المصريين!! وقال لهم: هل تعرفون كم عدد العميان فى مصر؟ وأجاب: إنهم يمثلون (٣٠٪)!

وعندما انتهت المحاضرة قدّم المحاضرون التبرعات لهذا المبشر، ورغبت فى أن أرد على د. روبلى، غير أن لغتى الألمانية لم تكن تسعفنى فى هذه المهمة، فقلت كلماتٍ قصيرة فى نهاية المحاضرة، واستمع إليها الحاضرون، مؤداها أن لى تعليقًا قصيرًا ستقرأونه فى الصحف، وأثناء خروجى اعتذرت له عن الإسهام[١] فى تقديم التبرعات، وعندما ذهبت إلى البيت قالت لى المرأة التى كنت أسكن عندها -غاضبةً- وقد حضرت: هل دينكم بهذا الشكل؟ وهل الحياة فى بلادكم على هذه الصورة القبيحة؟! غير أنى لم أنم تلك الليلة، وجئت بجميع القواميس فى محاولة منى لكتابة ردٍّ يصحح ما أثاره مفتش التبشير فى محاضرته من أكاذيب ومغالطات، وفى الصباح صححت لى هذه المرأة الرد المكتوب بلغةٍ ركيكة، وبعثت بهذا الرد إلى الصحف، وقد نسخت

(١) يقصد: اعتذرت له عن عدم الإسهام..

منه ثمانى نسخ، ونشرت الصحف الرد فى صفحاتها الأولى، وذكرت أنه لمحمد توفيق محرر مجلة «التقوى» بالقاهرة، ومن هنا كانت الحاجة ماسة لتأسيس «دار تبليغ الإسلام» لتقوم بتقديم مفهوم صحيح عن الإسلام، ولتساعد الأجانب الراغبين فى معرفة الحقيقة فميا يتصل بالإسلام، بلغاتهم الحية فى مواجهة حملات التضليل والأكاذيب والتعصب»[1].

والغريب أن المهندس محمد توفيق أثناء إقامته بالفيوم درس فى مدرسة تبشيرية، وغضب والده وطرده من البيت، وأقام إقامة داخلية بهذه المدرسة، واكتشف، بفطرته أباطيل الإنجيل، وكتب فى ذلك ثلاث كراريس مدرسية، رد بها على مستر «جلوى» مفتش التبشير، الذى لم يستطع الإجابة، وما قال له إلا إن الذى كتب هذا الكلام شيطان وليس أنت. وضاق ذرعًا بالمدرسة التبشيرية، وعاد إلى أحضان أبويه بعد أن أطلع عمه -وكان ذا دين- على ما كتبه ابن أخيه ردًا على الإنجيل.

يقول الأستاذ عبد اللطيف الجوهرى -مؤلف كتاب «رجل من أمة التوحيد أسلم على يده ٤٠٠٠ من الأجانب» -للمهندس محمد توفيق، أثناء حواره معه الذى ذكره فى كتابه، وكان هذا الحوار سنة ١٤٠٧هـ الموافق يونيه سنة ١٩٨٧، ونظر فى مجلة «منار الإسلام» الظبيانية الغراء ص ١٠٨ -١١٣: «ماذا عن رقم آخر بطاقة تزف للمسلمين بشرى ميلاد مسلم جديد؟ وما قصة إسلام باختصار؟ فقال الشيخ محمد توفيق: آخر بطاقة رقم (٣٣٣٤)

---

(١) «رجل من أمة التوحيد أسلم على يده ٤٠٠٠ من الأجانب» لعبد اللطيف الجوهرى ص ٢٢-٢٥ دار الصحوة للنشر.

وصاحبها هولندى، جاء إلينا فأعطيته رسائلى ليقرأها، ولكن لم أرَ منه الحماس الكافى لاعتناق الإسلام، وفى مرة أخرى زارنى فى صحبة صديق إنجليزى معه شديد التحمس إلى الإسلام. فعندما رأى هذا الحماس لدى الإنجليزى، عاد إلىّ بعدما تفرغ لدراسة الإسلام، وأقر بالشهادتين، وكتب إقرارًا بالإسلام وأسلم»[1].

كان الشيخ المهندس محمد توفيق يراسل مثقفى العالم الذين يريدون فكرة صحيحة عن الإسلام، ويتلقى آلاف الرسائل على صندوق بريده رقم (١١٢) فى القاهرة من مختلف أنحاء العالم.

يقول رحمه الله: «إن اتجاهى لتبليغ الإسلام للأجانب، دفعنى إليه -بالإضافة إلى واجب التبليغ على كل مسلم- افتتان العرب والمسلمين بالأجانب، فيما يعرف بـ«عقدة الخواجة» فأردت أن أتخذ من الأجانب حقلاً للدعوة الإسلامية، فإذا أسلم هؤلاء الأجانب، لفت ذلك أنظارنا فى بلاد العرب والمسلمين -مما يلفتنا -إلى عظمة ديننا وضرورة الالتجاء إليه والتشبث بهديه»[2].

ويقول: «إننى فى مجال تبليغ الدعوة للأجانب، لا أترك الأجنبى الذى يراسلنى بصدد دعوة الإسلام إلا بعدما يعلن الشهادتين، وفى العادة قد تطول المراسلة أو تقصر، وأقصر مراسلة انتهت بإعلان إسلام أحد الأجانب من ألمانيا استمرت شهرين، وأطولها استمرت سبعة عشر عامًا مع رجل من

---

(١) رجل من أمة التوحيد ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٩.

تشيكوسلوفاكيا، ومع هذا الأخير الذى كانت تربطنى به صداقة، وكان يتردد على القاهرة ويتفضل بزيارتى، وكان مصرًا على التمسك بعقيدته، بيد أنه جاءنى ذات مرة بعد مرور سبعة عشر عامًا على صداقتنا، وقال لى: إننى أحمل لك مفاجأة، فقلت له: ما هى؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»(١).

رحمه الله، لقد تفرغ تفرغًا تامًا لمراسلة الأجانب والرد على استفساراتهم طوال عمره المبارك الذى يناهز التسعين عامًا.

كتب إليه رجلٌ نصرانى أجنبى: إن عمرى ثمانون عامًا، وقد دأبت منذ نعومة أظافرى على التردد على الكنيسة، وإن ما قدمته من معلوماتٍ عن المسيح يفوق ما عرفت عنه فى الكنيسة.

يراسل الشيخ محمد توفيق صيدليًا كاثوليكيًا يسكن فى «بازل» على الحدود الفرنسية وزوجته، مدة طويلة بعد طول جهدٍ معهما، ويرسل إلى زوجة هذا الصيدلى ترجمة معانى القرآن الكريم، وتستوقفها أشياء، ويسافر الشيخ إلى «بازل» ويصل بقطار الساعة الرابعة بعد الظهر، وكانوا فى انتظاره -الصيدلى وزوجته وأولاده- ولم يكونوا يعرفونه، وكان قد وافاهم بمواصفاته، وأنه طويل نحيف بنظارة ومعه كتاب لونه أحمر، وكان قد حمله ليُعرَف به، واهتدوا إلى معرفته، وفور وصولهم إلى البيت قالت له زوجة الصيدلى: هل أنت متوضئ؟ فقال لها: نعم، فقالت: ونحن أيضًا موضئون، ثم طلبت منه أن يصلى بهم إمامًا، فتأثر وبكى.

---

(١) رجل من أمة التوحيد: ص ٥٩، ٦٠.

أم تقُص حكاية الصبى الألمانى، الذى كان والده يراسل الشيخ فى موضوع «الإسلام» ووصلت مراسلته إلى قناعته بالإسلام، وكان الشيخ فى مراسلته قد ذكر له أن أول من أسلم من الصبية على بن أبى طالب، ومن الرجال أبو بكر الصديق، ومن النساء خديجة بنت خويلد، وبعد ما أعلن الرجل إسلامه، وبعث إلى الشيخ بإقرار الشهادة، أرسل إليه الشيخ شهادة اعتناق الإسلام، وعقب ذلك تلقى الشيخ رسالة من ابن الألمانى الصبى وقال: أرجو أن ترسل لى الإقرار للتوقيع عليه وشهادة باعتناق الإسلام مثل أبى، فكتب إليه الشيخ يستمهله حتى يكبر ويزداد تعرُّفه على الإسلام، فأرسل من فوره رسالة ذات منطق مفحم، أقنع الشيخ وأثر فيه كثيرًا، حيث قال فى رسالته: «هل طلب محمد بن عبدالله من على بن أبى طالب أن يرجىء إسلامه حتى يكبر؟!» فلم ير إلا أن يلبى طلبه فورًا، ويرسل إليه الإقرار ليوقعه، ثم الشهادة باعتناق الإسلام[(١)].

يقول الأستاذ أنور الجندى عن المهندس محمد توفيق أحمد: «هذا رجل ليست له شهرة الأدباء، ولكن له مكانة العاملين فى مجال الفكر الإسلامى والدعوة الإسلامية فى صدقٍ وثبات، وقد اختار مجالاً لا يكاد ينافسه فيه أحد، وهو المحيط الخارجى، وفى قلب أوروبا بالذات، وأصدر مجلة «البريد الإسلامى» الزاهرة عام ١٩٤٣م، وأنشأ «دار تبليغ الإسلام» قبل ذلك عام ١٩٢٩م، بدأ عمله فى سويسرا عن طريق الرسائل والإعلانات، ففى كل محطةٍ من المحطات على طول الطريق من النمسا إلى زيورخ إلى بازل، تجد

(١) رجل من أمة التوحيد ص ٨٥.

لُوَحًا تقول: «لقد علمت خطأ عن الإسلام، إن كنت تريـد أن تعرف الحقيقة، فاكتب إلى فلان فـإذا أرسلت إليه، أرسل لك كتبًا صغيـرة موجزة» وقال لى: أرسل لى خمسة من أصدقائك، ولا يلبث أن يرسل إليهم بطاقاته، وامتد عمله فى النمسا والسـويد والنرويج وفرنسا، ونما هذا العمل الصـامت الخالص لوجه الله، وفى سبيل التعريف بالإسلام، وتحرير مفاهيمه، حتى كتب إلى مائة ألف من البـشر، قال لهم كلـمة التوحـيد، فكسب منـهم أصدقاء، وكـسب منهم معتنقين، ونشأ من خلال ذلك فى هذه الأقطار مجتمعات إسلامية»(١).

يا سبحان خالق الهمم... يرسل خطابات إلى مائة ألف شخص!!

ويقول الصـحفى المغربى الأسـتاذ عبدالقـادر الإدريسى عن الشيخ محـمد توفيق فى مقالة «الرجل المؤسسة»:

«أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف شخص، هذا هو المدخل الرئيسى إلى عالم صاحبى، التـقيت به مرتين، تفصل بينهما ثلاث عـشرة سنة كاملة، لم يتغيـر الرجل طوال هذه المدة، بل أستطيع أن أقول: إن قـوته وعزيمته تزدادان مضـاءً مع توالى الأعوام، الإشراق فى عـينيه يجذبك إليـه بقوة، رجل ليس كالرجال، قمة من القمم الشامخة التى وهبت حياتها لله رب العالمين، يحتفظ بمكتبه -الذى يشغل جناحًا من شقتـه المتواضعة- بملفاتٍ كاملةٍ عن الأشخاص الذين اهتدوا إلى دين الله على يده، أصناف مـتعددة من البشـر، الصفة التى

---

(١) رجل من أمة التوحـيد ص ١١١، ١١٢. نقلاً عن مقالة فى مـجلة «المنهل» الحجازية فى رجب سنة ١٣٩٠ الموافق سـبتمـبر سنة ١٩٧٠ بعنوان «لقـاء مع جيل الرواد المهندس مـحمـد توفيق أحمد».

تجمعهم أنهم خارج الوطن العربى والحكايـة لها بداية جديرة بالتسجيل: رحل صاحبى إلى أوروبا فى الثلاثينيات، وأقام بإحدى المدن السويسرية، حيث عمل فى الهندسة الكهربائية، وطالت إقامـته فى تلك الديار، وأقام علاقات عديدة مع مختلف الطبقات، مما أكسبه حسن السمعة وطيب الذكر، وأخذ فى الدعوة إلى الإسلام فى الأوساط المسيحية، ولقى عمـله إقبالاً كبيرًا، وفوجىء بتدفق لم يكن يتوقعه من شتى الأوساط، المتعلمة والمثقفة والعادية، فزاده ذلك إقبالاً على المضى فى هذا الـطريق، ودخل الكنائس والمدارس والسـجـون والنوادى الليليـة، وأخذ يـنفق على الدعوة مـن دخله الشخـصى، وهداه تفكيـره إلى استـئـجـار الأمـاكـن العـامـة مـثل: دور السـينمـا والنوادى وقـاعـات الاجتماعـات، لإلقاء المحاضرات وإدارة الندوات، وفجأة وجـد نفسه فى عالم لم يخطط له. كـان فى البـداية يقـدر أن المسـألة لا تعـدو أن تكون عـمـلاً متواضعًا، يقصد به وجه الله لا أقل ولا أكثر، فإذا به أمام نتائج باهرة وحركة واسعة وإقـبال لم يخطر على بال، وإذا باسم الرجل يتردد فى أكثـر من جهة فى أوروبا، وإذا بالصحافـة تكتب عنه، وإذا برجال الكنيسة يتحـركون لمعرفة السر وراء هذا النجاح، فلما أيقنوا أن الرجل لا يدعـمه أحد سوى الله، كفُّوا عن المناوشـة وسلموا أمرهم لله، حـتى إن بعض الرهبان والقـساوسـة أخذوا يترددون عليه فى مقر إقامته بمدينة بادن (أرجاو) بسويسرا لمناقشته والأخذ عنه، وكتب الله لهذا العمل المتواضع الخـالص لوجهه الكريم، أن يتسع ويمتد ويشع وينمو فى اطراد، وكان أن ارتفع المعدل الشـهرى للذين يُقبلون على الإسلام، وبمرور الأعوام قفزوا إلى الألف الأولى، ثم الثـانية، ثم الثالثة، وهذا كله من فضل ربى الذى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، اتخذ لنفسه شعارًا يلخصه فى

الجملة التالية: «الناس جميعًا أسرة واحدة، ربها واحد، ودينها واحد، هو الإسلام الذى دعا إليه جميع رسل الله الكرام، والسعيد الناجى مَن فهم القرآن، وعمل على نشر تعاليمه التى تحقق المحبة والسلام بين بنى الإنسان» وهو يطبع هذا الشعار على الرسائل التى يوزعها مجانًا بسبع لغات على القارات الخمس. هذا الرجل تخطى عتبة الثمانين ولا يزال فى فتوة وحيوية الشباب.

رجل يستحق التكريم ممن جعل الله تكريم الرجال على أيديهم، لقد أسعدنى أن التقى بالمهندس محمد توفيق بن أحمد سعد، وهذا اسمه بالكامل ألستم معى أن هذا الرجل يضاهى عمله عمل المؤسسات، إنه بحق الرجل المؤسسة، ولا عجب»[1].

وتحت عنوان «مع العاملين فى صمت وبلا دعاية» كتب الأستاذ محمد الجندى: «يذكر المهندس توفيق أحمد، أنه فى الوقت الذى تحاصر فيه الصحافة الإسلامية وتخضع لأجهزة متعددة من الرقابة، فإن جمعية «شهود يهوه» تُصدر مجلة تسمى «برج المراقبة» وتوزع منها عشرة ملايين نسخة، وبتسع وسبعين لغة ولهجة فى العالم، بينما كل المجلات والصحف فى العالم الإسلامى لا تتجاوز إصداراتها فى مجموعها مليون نسخة، وفى عددٍ محدود من اللغات، علمًا بأن جمعية «شهود يهوه» هى مؤسسة يهودية ترتدى ثوبًا نصرانيًا مزيفًا وتقوم على مبدأ خداع الجماهير المسيحية الساذجة، وإدخال نبوءات التوراة المحرفة فى النفوس، والتى منها ما يبشر بعودة اليهود إلى فلسطين

---

(١) مجلة «المسلمون» الدولية بلندن، العدد الصادر فى ٢١ من رجب سنة ١٤٠٢ الموافق ١٤ من مايو ١٩٨٢م.

والتى تخدم الفكر الصهيونى. ودار تبليغ الإسلام تقوم على شخصٍ واحد، هو «الساعى ومسئول العلاقات العامة والمحرر ورئيس التحرير ومسئول المراسلات والتمويل وغيرها» وقد وصفته إحدى المجلات الإسلامية بأن هذا الجهد الكبير، الذى يقوم به، لا تستطيع مؤسسات بكاملها عمله، ورجحت جهده على جهد أحد المؤتمرات الإسلامية، والتى أشرفت عليه مجموعة دولٍ فى إحدى العواصم الأوروبية عام ١٩٧٦، وكان هذا المؤتمر يهتم بالتراث من خلال مخطوطات إسلامية ومجموعة محاضرات، ورغم هذا لم يعلن أحدٌ إسلامه.

ويمنح المهندس توفيق أحمد شهادةً بإسلام من يرغب من الأوروبيين، ولا يتم منح هذه الشهادة إلا بعد إجراء الاختبارات الدقيقة حول الدوافع من اعتناق دين الإسلام، ويكتب فى الشهادة أى خروج على تعاليم الإسلام يلغيها»[(١)].

«اقرأها وأعطِها لغيرك مشكوراً، ولاتحتكرها فتأثم» كُتِبَت هذه العبارة على مجلة البريد الإسلامى، فرحم الله الرجل الأمَّة المؤسسة، عالى الهمة، الشيخ الداعية المهندس محمد توفيق، الذى أسلم على يديه أربعة آلاف شخص، وكتب إلى مائة ألف شخص يدعوهم إلى الإسلام، هذه هى الأسوة والقدوة»[(٢)].

هذا العمل العظيم هو الذى ورث هذا الأثر الجليل، وكان ذلك ناتجًا عن عمل ثبت عليه صاحبه لمدة تقرب من سبعين عامًا، فهل يعتبر الذين يغيرون

---

(١) مجلة «الهدى» الخليجية، العدد الصادر في يوم الجمعة ١٤ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥هـ.
(٢) «صلاح الأمة فى علو الهمة» : ٢/ ١١٤ - ١٢٤.

أعمالهم كل مدة ليقفزوا إلى عمل آخر، حتى تنتهى حياتهم ولم يخرجوا بشىء كبير ذى أثر جليل؟!

جـ- التفاؤل والثقة:

لابد لمريد الأثر النافع أن يكون متفائلاً، واثقًا بالنصر والتمكين، بعيدًا عن النظرات السوداوية، والتشاؤم المُهلِك، ناظرًا إلى الحياة على أنها سلسلة من البلاءات يتخللها ثقة وتفاؤل، ويعقبها نصر وتمكين وتداول، ولقد كان النبى الأعظم سيدنا محمد ﷺ سيد المتفائلين ومقدّم الواثقين، لاتزحزحه أعاصير الأحداث العظام، ولا تؤثر فى ثقته وتفاؤله المِحَن والزلازل.

- وكان يبشر سراقة بلبس سوارى كسرى وهو مهاجر مهدَّد.

- وكان يبشر أصحابه فى الخندق بفتح فارس والروم واليمن وهم فى أشد الساعات حلكة وخوفًا[1].

- وكان يطمْئِن أصحابه ويبشرهم وهم تحت العذاب فى مكة، فعن خباب ابن الأرت رضى الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ وهو متوسد بُردة وهو فى ظل الكعبة، ولقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمرٌّ وجهه فقال:

«لقد كان من قبلكم ليُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مَفْرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك

(١) وانظر مسند الإمام أحمد من رواية البراء بن عازب رضى الله عنه.

عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»[1].

بمثل هذه الثقة وذلك التفاؤل تستقر النفوس، وتستمر فى أعمالها وإنتاجها حتى تخلف الآثار العظيمة والأعمال الجليلة، ومن لا ثقة له بالنصر ولا تفاؤل عنده عاش محطمًا يائسًا، سوداوى النظرات، فكيف سيُنتج مثل هذا عملاً نافعًا ذا أثر مهم فى حياة الناس؟!

د - الشجاعة والإقدام:

وهما صفتان لازمتان لكل من يريد ترك الأثر النافع، فإن الدنيا لم تُخلق للجبان، ولا للمتقاعس المتردد الضعيف، والحياة فرص من اغتنمها فاز، ومن تخلف عنها تجرّع الغُصَص، ولا تعنى الشجاعة التهور، لا، بل هى أمرٌ بين الجُبن والخور وبين التهور.

إذا هبّت رياحك فاغتنمها   فإن الخافقاتِ لها سكونُ

والزمان لا ينتظر المترددين الوجلين، ولا شديدى الحذر الخائفين، الذين يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، والذين يقفون عقبة فى وجه كل مشروع نافع، ولئن سألتهم عملاً نافعًا سارعوا برده وتهويل شأنه، ولئن طلبت منهم المشورة تبرعوا بسيل من التخويفات والتيئيسات، لذلك كانت العرب تنهى عن استشارة الجبان الخائف.

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: باب ما لقى النبىّ ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

وما أحسن هذا التعريف للشجاعة: «هى الإقدام الاختيارى على مخاوفَ نافعة فى غير مبالاة»[1].

وقيل: «هى هيئة حاصلة للقوة الغضبية، بين التهور والجبن، بها يُقْدَم على أمور ينبغى أن يُقْدَم عليها. . .»[2].

وقيل: «هى الإقدام على الأمور النافعِ تحصيلُها أو دفعها، وتكون فى الأفعال والأقوال»[3].

وقال الطُرطُوشى[4]:

«واعلم أن كل كريهة تُرفع، أو مكْرمة تكتسب لا تتحقق إلا بالشجاعة. . . جميع الفضائل ما لم تقارنها قوة نفس لم تتحقق. . . وبقوة القلب يصاب اكتساب الفضائل. . . وبقوة القلب يقتحم الأمور الصعاب. . . وبقوة القلب يتحمّل أثقال المكاره. . . وبقوة القلب تُنفذ كل عزيمة أوجبها الحزم والعدل[5].

وقال غيره: «وأعظم ما ينمى الشجاعة ويمدها: الإيمان بالله، وقوة التوكل على الله، وكمال الثقة به سبحانه، وعِلْمُ العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويمده أيضًا الإكثار من ذكر الله والثناء عليه. . . .

(١) «التوقيف على مهمات التعاريف»: ٢٠٢ نقلاً عن «نضرة النعيم»: ٦/ ٢٣٢٢.

(٢) المصدر السابق. (٣) المصدر السابق.

(٤) هو محمد بن الوليد بن خلف، أبو بكر الفهرى الأندلسى.
انظر ترجمته فى «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٤٩٠ وما بعدها.

(٥) «سراج الملوك»: ٢/ ٦٦٨ ونقلت عن «نضرة النعيم»: ٦/ ٢٣٢٣.

ومن أسباب تقوية هذا الخلق الفاضل أيضًا التمرين، فإن الشجاعة -وإن كان أصلها فى القلب- فإنها تحتاج إلى تدريب النفس على الإقدام، وعلى التكلم بما فى النفس بإلقاء المقالات والخطب فى المحافل، فمَن مرّن نفسه على ذلك لم يزل به الأمر حتى يكون ملكة له. . .

والإخلاص لله وعدم مراعاة الخلق سبب بالغ فى تقوية ذلك، فإن المخلص الذى لا يريد إلا وجه الله وثوابه لا يبالى بلوم اللائمين إذا كان رضا لرب العالمين.

فمتى قوى إيمان العبد بالله وبقضائه وقدره، وقوى يقينه بالثواب والعقاب، وتمّ توكُّله على الله، وثقته بكفاية الله، وعلم أن الخلق لا يضرون ولا ينفعون، وأن نواصيهم بيد الله، وعلم الآثار الجليلة الناشئة عن الشجاعة: قوى قلبه، واطمأن فؤاده، وأقدم على كل قول وفعل ينفع الإقدام عليه.

ولا بد لمَن كانت هذه حاله أن يمده الله بمدد من عنده لا يدركه بحوله ولا قوته.

وكمال زينة هذا الخلق النبيل أن يكون موافقًا للحكمة، فإنه إن زاد عن حد الحكمة خُشى أن يكون تهورًا وسفهًا، وإلقاء باليد إلى التهلكة، وذلك مذموم كما يُذَم الجبن والخَوَر، فالشجاعة المحمودة تتوسط خلقين ذميمين وهما الجبن والتهور، وتكون محمودة إذا كان المقصود بها نصر الحق، ورد الباطل، وتحصيل المنافع العامة والمصالح المشتركة»[1].

---

(١) من كلام الشيخ عبد الرحمن بن سعدى رحمه الله تعالى فى كتابه «الرياض الناضرة، والحدائق النيِّرة الزاهرة»: ٥٤- ٦٠، وقد نقله من «نضرة النعيم»: ٦/ ٢٣٢٤- ٢٣٢٥.

وهذا كلام رائع جليل، لا مزيد عليه.

هـ- الجدية:

والجدية «حالة من التيقظ المتواصل المستديم تتيح استغلالاً وافرًا لطاقات الدعاة في سد الحاجات واستثمار الفرص دون تعطيل لشيء منها، وهذه الجدية الدائمة منضبطة بما ذكره الرافعي[1]:

«إن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرج، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والإهمال»[2].

ويقول الإمام البنّا -رحمه الله تعالى- واصفًا الجدية:

«أستطيع أن أتصور المجاهد: شخص قد أعدّ عُدّته، وأخذ أهْبته، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواصي نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبدًا، إن دُعي أجاب، أو نودي لبّى، غدوه ورواحه، وحديثه وكلامه، وجده ولعبه لا يتعدى الميدان الذي أعدّ نفسه له»[3].

---

(١) مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد الرافعيّ، عالم بالآداب، من كبار الكتاب، وشاعر، أصله من طرابلس الشام، وولد في بَهْتيم بمصر سنة ١٢٩٨، أصيب بصمم، وشعره فيه جفاف، ونثره من الطراز الأول، توفي في طنطا سنة ١٣٥٦ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٧/ ٢٣٥.

(٢) «الفتور»: ٣٩، ٤٠.

(٣) المصدر السابق: ٤٠، ٤١.

وفى الوقت نفسه يصف عكس حال المجاهد الجاد فيقول: «الذى ينام ملء جفنَيه، ويأكل ملء ماضغَيه، ويضحك ملء شدقَيه، ويقضى وقته لاهيًا لاعبًا عابثًا فهيهات أن يكون من الفائزين أو يُكتب فى عداد المجاهدين»(١).

ولا يخفى أن وصف البنا لذلك الشخص الجاد إنما هو وصف عزيز قد لا ينطبق إلا على أفراد من الأمة قلائل، جعلنا الله منهم، وإنما كلامه مثال يُقترب منه ويُبتعد بحسب التوفيق الإلهى.

ويخاطب الإمام المودودى(٢) -رحمه الله تعالى- الأمة حاثًا لها على الجد:

«من لوازم المجاهدة فى سبيل الله تعالى حماسة القلب وتعلقه بالغاية. . .
إن من الواجب أن تكون فى قلوبكم نار متقدة تكون فى ضرامها على الأقل مثل النار التى تتقد فى قلب أحدكم عندما يجد ابنًا له مريضًا ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد فى بيته شيئًا يسد به رمق حياة أولاده فتقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعى.

إنه من الواجب أن تكون فى صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم فى كل حين من أحيانكم فى سبيل غايتكم، تعمر قلوبكم بالطمأنينة، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد، تستقطب عليها جهودكم وأفكاركم بحيث إن شؤونكم

---

(١) الفتور: ٤٠، ٤١.

(٢) أبو الأعلى المودودى، العلامة الداعية، وُلِدَ فى أورانج آباد فى الهند سنة ١٣٢١، واشتغل بالدعوة والجد والاجتهاد حتى استقلت باكستان عن الهند؛ فانتقل إليها وطالب الحكومة بتطبيق الشريعة فسجن مراراً. نال جائزة الملك فيصل ١٣٩٩ وله مؤلفات كثيرة، توفى رحمه الله تعالى سنة ١٣٩٩. انظر: «تتمة الأعلام»: ١/ ٧٣- ٧٥.

الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين، وعليكم بالسعى ألا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية فى الحياة.

وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة فى أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم وأفكارَكم فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكنًا بمجرد أقوالكم. . . »[1].

وهذا كلام راقٍ شافٍ لا مزيد عليه، فإن لم يتحرك به وله المرء فبماذا ومتى يتحرك؟!

***

الركن الثالث: الهدف العظيم

وهو ركن ركين، لابد منه لكل طالب أثر عظيم، وذلك بأن ينظر حوله يمنة ويسرة متطلبًا الثغرات ليعالجها؛ إذ فى عالمنا الإسلامى اليوم ثغرات كثيرة، فليعزم على أن يسد ثغرة من تلك الثغرات، وسبيله هو:

١- أن ينظر فى ملكاته ومواهبه، وما وضعه الله تعالى فيه من قدرات.

٢- ثم لينظر إلى تلك الثغرات نظر فاحص متأمّل.

٣- ثم ليختر منها ثغرة تميل نفسه إلى العمل على سدِّها، وتساعده قدراته ومواهبه على هذا.

---

(١) «تذكرة دعاة الإسلام»: ٤٠، ٤١.

٤- ولا ينسى أن ينظر إلى بيئته ومجتمعه، وأحوال زمانه، وما يتيسر له من العمل على ضوئها.

٥- وهذا سيكون هو هدفه فى الحياة الذى يسخِّر له كل قدراته ومواهبه وملكاته، ويعمل ليل نهار للوصول إليه.

ومهما اتسعت الثغرة وتشعبت على المسلمين كان العامل لسدها عاملاً فى شىء عظيم، وبمقدار التوفيق الذى يدرك العامل، والعناية التى تشمله سيكون هدفه عظيمًا وعمله كبيرًا.

ولتوضيح هذا فإنى أمثّل بمثال:

هناك ثغرة تقنية علمية صعبة على المسلمين، بل هى فضيحة؛ إذ المسلمون اليوم عالةٌ على غيرهم فى المنتجات التقنية، والأبحاث العلمية، وفى الغذاء والدواء، والكساء والسلاح، وسمِّ ما شئت مما اشتدت حاجة الناس إليه اليوم، أو كان من التحسينيات ولوازم الرخاء وبُلَهْنِيَةِ العيش، فإن المسلمين قد قصروا فى تحصيله تقصيرًا بيِّنًا، فإذا أتى شاب نابغة ذو مواهب وأراد أن يصنع شيئًا حسنًا بمواهبه وقدراته تلك فليسد على المسلمين تلك الثغرة، وليعمل ليل نهار على تحصيل الأسباب التى تمكِّنه من ذلك، من تحصيل لغة أجنبية، ومواصلة الدراسة الراقية المفيدة حتى يستطيع بعد سنوات تطول غالبًا أو تقصر أن يسد شيئًا من تلك الثغرة، وأن يخرج للمسلمين بشىء نافع، ألا ترون أن أكثر الطلاب اليوم لا يكادون يعودون بدراستهم -ولو كانت عُليا- على المسلمين بشىء نافع عظيم يسد عليهم ثغرة ضخمة تعصف بهم، وتعرضهم للذل والهوان، والحاجة إلى الأعداء.

- إذًا: لابد لكل راغب فى أن يتـرك أثرًا عظيمـًا أن يكون هدفه عظيـمًا، وبمقدار عظم الهدف يعظم والأثر ويرسخ.

أثر الشيخ أحمد ياسين[1]:

وأضرب للمؤثرين مثلاً عظيمًا وهو الشيخ المجاهد، المقعد، حجة الله على الأصحاء، الشهيد بإذن الله: أحمد ياسين، هذا الرجل العظيم ترك أثرًا عظيمًا جدًا ألا وهـو تحول أكثـر فلسطينيى زمـاننا إلى الإسلام بعـد ارتماء طويل فى أحضان العروبة والقـومية، والبعثية والماركسيـة، واليسار واليمين، وسب الإله وسب الدين، فـجاء الله تعـالى بهذا الرجل المقـعد فنظر حـوله فإذا بـأعلام الإسلام منكّسة، ورايات الكفر والضلال عالية مؤثرة، فآلى على نفسه أن يعيد للإسلام فى تلك الديـار المقدسة مـجده من جديد، فـاستعـان بالله تعالى ثم بعصبة قليلة مؤمنة، فصار يجوب المساجد والمعاهد والبيوت والمدارس، متنقلاً من مكان إلى مكان، يربى الغلمـان الصغـار والفتـية الناشـئين، يربيـهم على الإسلام وحب الله تعالى ورسـوله ﷺ، وحب الجهاد فى سبيل الله، فـتحقق على يديه بفضل الله تعـالى ما يشبه المعجـزة، وما هو كالمستـحيل، وصارت الكلمـة المسمـوعة، والرايـة المرفوعـة لأهل الإسلام والإيمـان، وانزوى أهل الضلال والفساد، وصار أصحابه هم أسياد البلاد، ولله الحمد والمنّة.

وكأن الله تـعالى أراد أن يقـول للناس: بهذا المقـعد سـأقيم الملّة، وبـهذا المشلول سأحيى البلاد، وبهذ الجالس سأُنهِض العباد، الله أكبر.

---

(١) ولد سنة ١٣٥٥، وتوفى شهيـدًا -إن شاء الله تعالى- سنة ١٤٢٥، رحمـه الله تعالى وتقبله فى الخالدين.

نبذة عن تطور المشهد الإسلامي في فلسطين:

سأسوق للقراء الكرام نبذة موجزة -لابد منها- توضح بجلاء كيف كان أثر هذا الشيخ المجاهد عظيمًا في فلسطين، وكيف نقل هو وإخوانه أهلها إلى الإسلام نقلة نادرة، وليتحمل القارئ الإطالة في هذه النبذة لأنها توضح ما أريد من أنه كيف يحقق الإنسان الأثر القوي الضخم في هذه الحياة إذا وضع الهدف العظيم نصب عينيه:

لقد عاش أكثر الفلسطينيين ٤٠ سنة تقريبًا وهم متفلِّتون من التعاليم الإسلامية، وإذا أردت تحديد المدة فإنه سيصعب عليَّ هذا في هذه الدراسة الموجزة لكني أقدّرها من أواسط الثلاثينيات الميلادية من القرن الفائت إلى أواخر السبعينيات، إذ قبل الثلاثينيات كان الالتزام بالإسلام ومظاهره أمرًا سائدًا ولو من باب التقاليد ومراعاتها، وبعد ذلك أخذت المظاهر الإسلامية تخفت شيئًا فشيئًا إلى أن أتى على الناس زمان في فلسطين تلاشت فيه أو قلّت مظاهر الالتزام بالإسلام، ورمت أكثر النساء الحجاب، وترك أكثر الناس الصلاة حتى الجمعات، وانتشرت المذاهب الضالة كالقومية العربية، والناصرية، والبعثية، والماركسية في أرض فلسطين الطاهرة -أرض الأنبياء- ومَن اطلع على تلك المدة وكتابات علماء المسلمين عنها -أمثال: الأستاذ عبد الله عزّام[1]- يعلم صدق ما أورده، حتى إذا جاءت نهاية السبعينيات الميلادية

(١) عبد الله بن يوسف عزام: عالم، مجاهد، مصلح. ولد في قرية من أعمال جنين بفلسطين، سنة ١٣٦٠، درس في كلية الشريعة بدمشق، ونال الماجستير والدكتوراه من الأزهر، له كتب كثيرة. توفي شهيدًا -إن شاء الله- في بيشاور سنة ١٤١٠ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ٢/ ٣٠- ٣٢.

من القرن الفائت، وابتدأت الصحوة بالانتشار في مصر وسوريا وغيرها، تأثّر بها الفلسطينيون، وابتدأت مظاهر الالتزام بالإسلام تنتشر في فلسطين على وجه أرعب إخوان القردة والصليبيين من ورائهم، وسأورد في الصفحات المقبلة -إن شاء الله تعالى- تسلسلاً موجزًا جدًا يبين ما جرى هنالك، وذلك حتى ابتداء الثمانينيات الميلادية من القرن الفائت، أما ما حصل بعدها إلى اليوم من الانتفاضات الجهادية المتكررة حتى استلام الحركة الإسلامية الحكم في فلسطين فشيء يعجز القلم عن تتبُّعه، ويعتقل اللسان عن التعبير به، وحسبي الإشارة بأوجز عبارة إلى المدة التي ذكرت فهي تعبّر بوضوح عن ظهور الآثار الأولية لعمل الشيخ العظيم، وهذا -ربما- هو الذي يخفى على أكثر القراء، وأما ما جرى في الانتفاضات الجهادية إلى استلام الحكم في فلسطين فهو تتويج للعمل العظيم وإظهار للأثر الكبير لهذا الشيخ المقعَد وإخوانه العظماء، وأكثر القراء مطَّلعون عليه، ونحن ما زلنا إلى اليوم نعيش فرحته وبهجته، ولله الحمد.

مشاهدات الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى[(١)]:

زار فلسطين سنة ١٩٤٧ -قبيل النكبة- فقال: «لمست أثر اليهود في الرجس الذي بثُّوه في أرجائها، حتى إنني لما ذهبت أسأل عن فندق مناسب قال لي المسؤول: أتريد فندقًا للنوم أم لـ. . . وأشار بيده إشارة قرنها ببسمة مِن فيه.

---

(١) مصري الأصل، شامي المولد والنشأة، المكي الوفاة، أحد أعلام العربية، كان قد عمر طويلاً فمات يوم مات وهو أفضل أدباء العربية، له مصنفات كثيرة ممتعة مفيدة، تولى مناصب التدريس والقضاء بالشام. ولد سنة ١٣٢٧ وتوفي سنة ١٤٢٠ رحمه الله تعالى. وانظر ترجمته في «ذيل الأعلام»: ٢/ ١٣٤، ١٣٥.

قلت: ما أدركت ما تريد.

قال: تريد فندقًا ببنات أم بلا بنات؟

فتركته وانصرفت عنه وحسبته يمزح معى أو يسخر منى.

ولكنى لما ولجت كثيرًا من الفنادق دخلتها لأختار واحدًا منها، رأيت بنات جالسات كأنهن من نزيلات الفندق، وعلمت بعدُ أنهن يهوديات، ثم خبّرونى أن مَن شاء أشار بيده إلى واحدة منهن دلّ عليها كاتب الفندق، فذهب معها نصف ساعة إلى غرفتها، أو ذهبت معه ليلة أو بعض ليلة إلى غرفته.

بغاء معلَن وعهر ظاهر...

فقلت: أما فى البلد علماء؟ أما فيه جمعيات إسلامية تُعنى بالإصلاح؟

قالوا: بلى، هذه الجمعية الخيرية، وأشاروا إلى مكان قريب منا، فصعدت سُلَّمًا فإذا أنا فى رحبة متسعة فيها الأعضاء مجتمعون.. فوصفت لهم ما رأيت من القذارة المعنوية فى الفنادق والقذارة المادية فى السوق، وحملت عليهم حملة منكرة، ونفثت ما فى صدرى، ونفّست بذلك عن نفسى، وبدا لى أننى أوجعتهم بالكلام فاعتذروا بأنهم لا يملكون شيئًا، وذكروا اليهود والإنجليز، والإنجليز رأس كل بلاء رأيناه، وهم الذين جاؤوا باليهود، وكانوا يحمون اليهود... ثم ذهبنا بعد انتهاء الجلسة إلى دار القاضى نزوره، وكان فى عمارة تحتها مقهى رأيت فيه نساء جالسات، فقلت: وهل يجلس النساء عندكم فى المقاهى؟ فكأنهم خجلوا من سؤالى، وأحبوا أن يبتعدوا عن

جوابى، فأصررت، ففهمت منهم أن هؤلاء الجالسات يهوديات يقعدن فى المقهى ليستلبن شابًا غريرًا يُفسدن أخلاقه ودينه...»[1].

وهذه المشاهدات التى شاهدها الشيخ على وجازتها وجزئيتها تبين كيف كان المجتمع ضائعًا، وتبين بجلاء كيف كان العجز مستوليًا على المصلحين إزاء ما يحدث من الصليبيين البريطانيين ومن اليهود من هدم للأخلاق، وانتشار للفحشاء.

وهذا فى الحقيقة هو الذى مهّد للهزيمة الكبرى سنة ١٣٦٧- ١٩٤٨ خاصة أن ما ذكره الشيخ على كان واقعًا سنة ١٩٤٧ قبيل النكبة بقليل.

مشاهدات اللواء أركان حرب محمود شيت خطاب[2]:

فى حرب سنة ١٣٦٧- ١٩٤٨ دخل هذا اللواء الكبير فلسطين مجاهدًا من العراق، فيقول:

«ودخلنا فلسطين وكان أول مدينة رأيناها هى مدينة أريحا التاريخية، فوجدنا المقاهى والنوادى والشوارع والمحلات العامة فيها تغص بالشباب الفلسطينى: يلعبون النرد أو الشطرنج، وكأن الحرب ليست قائمة بين العرب واليهود.

---

(١) «ذكريات»: ٥/ ٧٢- ٧٤.

(٢) ضابط عراقى كبير وقائد عسكرى، وداعية مجاهد، ومؤرخ أديب. ولد فى الموصل سنة ١٣٣٨، يتصل نسبه بالنبى ﷺ من جهة الحسن بن على، حصل على شهادات عسكرية متعددة، وتولى منصب الوزارة فى عهد عبد السلام عارف مرات ثم استقال وتفرّغ للتأليف، كان عضوًا فى عدة مجامع لغوية. قدّم للمكتبة الإسلامية ٣٥٤ كتابًا أكثرها مخطوط، توفى سنة ١٤١٩ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته فى «ذيل الأعلام»: ٢/ ١٨١، ١٨٢.

وتكرر نفس المنظر فى مدينة نابلس، وتكرر نفس المنظر أيضًا فى مدينة جنين.

وكان أول انطباع فى نفسى هو شعورى العميق بأن الشباب الفلسطينى يجب ألا يكون مكانه هنا تحت أجنحة الدعة والراحة والسلام، بل يجب أن يكون مكانه هناك فى ساحات القتال دفاعًا عن وطنهم السليب...

وقد كانت التربية الاستعمارية[1] ذات الأهداف الخبيثة قد تركت آثارًا سيئة فى نفوسهم، فقد أشاعت فى نفوسهم حب الترف والاستمتاع بالحياة، ولم توجههم الوجهة الصحيحة.

لقد كان هؤلاء الشباب فى الأيام الحاسمة من محنة وطنهم طاقاتٍ مضيعة، كانوا جهدًا مضاعًا، كانوا قطيعًا بلا راع»[2].

حجاب النساء:

لقد ابتدأ ظهور التفسُّخ فى حجاب النساء فى فلسطين منذ أواخر الثلاثينيات من القرن الماضى، فقد أصدر أحد المجاهدين من ورثة الشيخ القسام، وهو: عبد الرحيم الحاج محمد، بلاغًا باسم ديوان الثورة العربية الكبرى فى سنة ١٩٣٨ يذكر فيه أنه «بلغنا أن بعض النسوة» حريصات على التشبُّه بالزى الإفرنجى، مهملات أمر الطرحة»[3].

---

(١) أى البريطانية.

(٢) «طريق النصر فى معركة الثأر»: ١٦، ١٧.

(٣) «التيار الإسلامى فى فلسطين»: ٤٠٥.

وذكـر الأستـاذ محسن صـالح أنه «قـد حرصت المرأة فـى فلسطين على الاحتشام فى جـميع الأشياء، وكانت النساء يرتدين الحـجاب الذى يتألف من الفستان والجلباب أو الترواق الذى يغطى سـائر جسم المرأة،كما حرصت نساء المدن العربيات على لبـس النقاب على وجوههن. . . ولم تتغيـر صورة التزام المرأة بهذا الزى إلا أثناء الانتداب البريطانى، إذ كانت النساء المتعلمات يرتدين الزى الأوروبى، وترك قسم منهن الحجاب وسرن سافـرات، وبعضهن استبدله بغطاء للرأس فقط»[1].

وبين يدَىَّ كتاب سجل فيه وقائع المؤتمر النسائى الشرقى المنعقد بدار جمعية الاتحاد النسـائى المصرى بالقاهرة من ١٥- ١٨ أكتـوبر سنة ١٩٣٨ للدفاع عن فلسطين، وجاءت له مندوبات من فلسطين وسوريـا ولبنان، والعجيب أن وفد فلسطين كان فيه قرابة خمس وعـشرين امرأة كنّ كلهن سافرات لم يكن بينهن امرأة محجّبة كما ظهر من صورهن العديدة التى صُوِّرت فى الكتاب[2].

ومما يتعـجب منه أن خبـرًا ورد فى الكتاب أن «سـيدات نابلس البـاسلات يخرجن على **التقـاليد** ويَسِرن سـافرات لجمع الـتبرعـات، وأنه لأول مرة فى تاريخ هذه المدينة العريقة فى **التقاليد** نرى نساءها الباسـلات يخرجن سافرات لجمع الإعـانات من أهل الخيـر وتوزيعهـا على أرامل وأيتام شهـداء فلسطين الأبرار، وقـد أكبرَ الـرجال هذه الحركـة متـأثرين **بوطنيـتهن**، وساهمـوا فى مشروعهن بسخاء وطيب خاطر»[3].

---

(١) «التيار الإسلامى فى فلسطين»: ٣٥، ٣٦.   (٢) المصدر السابق ص ٣٨ وما بعده من الكتاب.

(٣) المصدر السابق: ٢٨١.

- إذًا: **القضية قضية تقاليد ووطنية، وليس قضية إسلام.**

ثم جيء بصورتهن فإذا بهن سافرات يلبس بعضهن الغترة والعقال!!

وكان القائم على المؤتمر هدى شعراوى وجمعيتها «الاتحاد النسائى المصرى» فإذا عُرف السبب بطل العجب!!

الجهود الجليلة بدأت تؤتى أكلها:

كان لجهود الشيخ الكبير أحمد ياسين وإخوانه أكبر الأثر فى مقاومة التفسُّخ والانحلال، ورد المذاهب الباطلة من شيوعية واشتراكية وناصرية وبعثية ويسارية عن فلسطين، ثم بعد ذلك صارت حركة الشيخ أعظم وأقوى قوة فى فلسطين، وهى تَحكم اليوم، وهذا من فضل الله تعالى.

وقد بدأت الحركة تؤتى ثمارها منذ أواخر التسعينيات الهجرية- السبعينيات الميلادية من القرن الفائت، وكانت هناك تصريحات عديدة فى فلسطين يثيرها اليهود ضد هذا الإسلام المتنامى، فمن تلك التصريحات العجيبة نفهم أثر حركة الشيخ أحمد ياسين فى أوائل ظهور نتائجها على أرض فلسطين الطاهرة:

- اعترف مسؤول يهودى كبير فى سلطات الاحتلال اليهودى فى مقابلة صحفية أجرتها صحيفة هآرتس اليهودية فى عددها الصادر ٢/ ٢/ ١٩٧٩ بأن هناك مزيدًا من الدلائل تشير إلى تزايد المد الإسلامى الذى بدأ يظهر بين عرب (إسرائيل) -على حد تعبير المسؤول اليهودى- والذين يبلغ عددهم نصف مليون، وبين عرب الضفة الغربية وقطاع غزة الذين يبلغ عددهم حوالى مليون.

وقال المسؤول اليهودى: إن الذى يثير قلقنا هو أن مواقف العرب داخل (إسرائيل) بدأت تتحوّل من مواقف مبنية على قاعدة قومية إلى مواقف تستند إلى قواعد دينية، وإن الشباب العرب بدأوا يتحولون عن زعاماتهم التقليدية إلى الزعامة الدينية التى يمثلها علماء الدين، وهم فى غالبيتهم من الشباب الذين لا يستبعَد أن تكون لهم ارتباطات بحركات إسلامية متعصبة(١).

- وفى ندوة عقدها أهم معهد أبحاث يهودى متخصص فى رصد الشؤون العربية فى يناير سنة ١٩٧٩ ذكرت عدة نقاط أهمها: الاعتراف بوجود يقظة إسلامية حقيقية بدأت فى الظهور بين عرب فلسطين المحتلة رغم كل الجهود التى بذلها اليهود خلال الثلاثين عامًا الماضية لدمجهم فى المجتمع اليهودى(٢).

- وفى ١٩/ ٢/ ١٩٧٩ اعتقل اليهود ١٢ عالمًا فى بيت المقدس معظمهم من الشباب، وذكرت وكالة الأنباء الفرنسية أن سلطات الاحتلال بدأت تبث رجالها فى المساجد لرصد الشباب المسلم الذى يرتاد المساجد فى صورة متزايدة(٣).

- ونقلت صحيفة القبس الكويتية فى عددها الصادر فى ٣٠/ ٦/ ١٩٧٩ عن صحيفة «فورتشن» الأمريكية أن الصحوة الإسلامية تقلق أمريكا، وإسرائيل تتوقع جهادًا إسلاميًا مقدسًا لتحرير الأقصى، وجاء فى المقالة أنه حتى فى الجامعات العبرية فى إسرائيل بدأ الطلاب العرب المسلمون يبدون اهتمامًا متزايدًا بالعودة إلى دينهم، وبدأوا يمارسون ضغوطًا على السلطات

---

(١) «عداء اليهود للحركة الإسلامية»: ٦٠، ٦١.

(٢) المصدر السابق: ٦٣، ٦٤.

(٣) المصدر السابق: ٧٠.

اليهودية للسماح بفتح كليات للثقافة الإسلامية والشريعة الإسلامية فى الجامعات اليهودية، كما بدأ العديد منهم يطلقون لحاهم ويؤدون العبادات الإسلامية، فى حين بدأت الفتيات المسلمات فى ارتداء الزى الإسلامى الشرعى[1].

- وهناك مقال لصحيفة هآرتس فى ١٣/ ٧/ ١٩٧٩ قالت فيه تحت عنوان: الإسلام يعم قرى المثلث فى (إسرائيل):

إن سكان قرى المثلث لم يكونوا إلى ما قبل أشهر قليلة وعلى مدى الثلاثين عامًا الماضية لم يكونوا يكترثون أبدًا أو يهتمون بيوم الجمعة، فقد كان يمضى كأى يوم آخر من أيام الأسبوع، أما الآن فقد أصبح ليوم الجمعة أهمية كبيرة، إذ ما إن يبدأ مؤذن المسجد برفع صوته بالأذان حتى يهرع جميع السكان إلى المسجد ليؤدوا الصلاة. . .

إن ظاهرة تزايد اليقظة الإسلامية فى المناطق التى يقطنها عرب فى (إسرائيل) ليست مقتصرة على القرى وحدها بل إنها تبرز فى المدن أيضًا وخاصة فى عكا، وإجمالاً فإن القطاع العربى من إسرائيل يعيش حاليًا مرحلة العودة إلى الإسلام، فقد أخذ الجميع وخاصة الشباب يؤمون المساجد بعد أن كانوا يمضون وقتهم فى المدن الكبرى والمقاهى والنوادى والاجتماعات الحزبية، وهذه ظاهرة لم تشهد الأقلية العربية لها مثيلاً من قبل[2].

- وذكرت الصحيفة فى العدد نفسه «أن النشاط الإسلامى ليس مقتصراً على (رجال الدين) وحدهم، بل إن الواعظات المسلمات لهن دور كبير فى

---

(١) «عداء اليهود للحركة الإسلامية»: ٧١.
(٢) المصدر السابق: ٧٨، ٧٩.

تزايد اليقظة الإسلامية بين عرب إسرائيل -على حد تعبيره- ففى قرية باقة الغربية، مثلاً، تلقى واعظة شابة تأتى من نابلس دروسًا دينية كل يوم ثلاثاء أمام نساء وفتيات القرية، وقد كان لهذه الدروس أثر كبير فى عودة الكثيرات إلى الإسلام وامتلاء المساجد بهن فى الأماكن المخصصة لهن»[(١)].

- وذكرت مجلة الدستور اللندنية فى عددها الصادر فى ٢٣/ ٢/ ١٩٨١ أن الصهاينة يشعرون بقلق شديد إزاء تعاظم الشعور الإسلامى بين صفوف الشباب فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ والضفة الغربية وقطاع غزة[(٢)].

- وفى ٦ مارس ١٩٨٢ نشر مجلة «المجلة» اللندنية تحقيقًا خاصًا عن انتشار التيار الإسلامى فى فلسطين المحتلة، ونقلت تصريحًا لمستشار مناحيم بيجن للشؤون العربية قال فيه: «إن الجماعة الإسلامية تلجأ إلى الإسلام لتوحيد عناصر المعارضة للوجود الإسرائيلى، وهذا شىء خطير»[(٣)].

- فى ٣١/ ١/ ١٩٨٢ نشرت صحيفة الوطن الكويتية مقالاً مترجمًا نشرته مجلة «التايم» الأمريكية عن «تصاعد الروح الإسلامية فى الضفة الغربية المحتلة، حيث أشارت «التايم» بأسلوب تحريضى سافر إلى أن علامات الانبعاث الإسلامى المتطرف فى الجامعات والمعاهد فى فلسطين المحتلة تتزايد بشكل ملحوظ، وأن المتطرفين المسلمين يتمتعون بتأييد واسع النطاق بين طلبة الجامعات والمعاهد.

---

(١) «اعداء اليهود للحركة الإسلامية»: ٨٣.

(٢) المصدر السابق: ١٠٢.

(٣) المصدر السابق: ١٠٧.

إن معظم الطالبات فى جامعة النجاح وغيرها من الجامعات والمعاهد فى فلسطين المحتلة أصبحن يرتدين الملابس الإسلامية الطويلة، ويغطين رؤوسهن بالخمار الإسلامى»[1].

هذا كان هو الأثر الباهر الذى كان نتيجة عمل دؤوب من الشيخ أحمد وإخوانه ومَن سار بعده.

أرأيتم إذا عظم هدف المرء كيف يُبدع ويفعل ما يشبه المُحال؟ وكما أنه إذا تدنّت أهدافه أصبح على هامش الحياة لا يؤبَه له ولا يُشعر أنه عاش فى هذه الحياة أصلاً.

وهناك عاملون كثيرون يغيرون مسار التاريخ فى الأمريكيتين، وأوروبا، واستراليا، وأفريقيا، حيث يعملون ليل نهار، وفى ذهنهم أهداف عظام طمحوا إليها ونفّذوا كثيرًا منها، وكثير من عجزة الثقات يرمقونهم ببرود، بل إن بعضهم يحاربونهم ويقفون فى وجه أهدافهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

- إذًا: **ينبغى على كل عامل أن يضع نصب عينيه هدفًا عظيمًا يحاول بكل جهده أن يصل إليه، والله الموفق.**

انظر إلى صلاح الدين الأيوبى -رحمه الله تعالى- حيث جاهد الصليبيين جهادًا عظيمًا متواصلاً، لكنّ هدفه كان أسمى من انتصارات وقتية وإخراجهم من بلاد الشام، هذا أحد أصحابه يحكى أنه كان سائرًا معه فى عسقلان إلى عكا «وكان الزمان شتاءً عظيمًا، والبحر هائجًا هيجانًا عظيمًا وموجه كالجبال، كما قال الله تعالى. وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندى

(١) «عداء اليهود للحركة الإسلامية»: ١٦٢.

حتى خيِّل لى أننى لو قال لى قائل: لو جُزت فى البحر ميلاً واحدًا ملّكتك الدنيا لما كنت أفعل، واستخففت رأى من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم، واستحسنت رأى مَن لا يقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لى لعِظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر وتموجه.

فبينا أنا فى ذلك إذ التفت إلىّ وقال: إنه متى يسّر الله -تعالى- فتح بقية الساحل، قسمت البلاد وأوصيت وودّعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله، أو أموت.

فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان يخطر لى، وقلت له: ليس فى الأرض أشجع نفسًا من المولى، ولا أقوى نيَّة منه فى نصرة دين الله، وحكيت له ما خطر لى، ثم قلت: ما هذه إلا نيَّة جميلة ولكن المولى يُسيِّر فى البحر العساكر، وهو سور الإسلام، ولا ينبغى أن يخاطر بنفسه.

فقال: أنا أستفتيك: ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت فى سبيل الله.

فقال: غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتات.

قال: فانظر إلى هذه الطَوِيّة ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها»[1].

أرأيت -أخى القارئ- ذلك الهدفَ العظيم الذى وضعه صلاح الدين -رحمه الله تعالى- لنفسه، وكيف كان يسعى لتحقيقه، فمَن وضع هدفًا لنفسه يقارب ذلك أو يماثله أتُراه يعجز أو يكل دون تحقيقه؟

(١) «مختصر الروضتين»: ٣٨٣.

وإذ كـانت النفـوس كبـارًا تعبت في مـرادها الأجسـام

محذور خطير:

ليحذر صاحب مشروع ترك الأثر النافع أن يضحك عليه الشيطان، ويصرفه عن استهداف الأثر العظيم بآخر مرجوح، وهذا يحدث لجملة كبيرة من الصالحين، فتراه عاملاً نشيطًا لكن لهدف صغير أو مرجوح بالنظر إلى قدراته وما يستطيعه، وأعرف أصحابًا لى كذلك شغلوا أنفسهم حينًا من الدهر ليس بالقصير فى إتيان الأعمال المرجوحة، والانشغال بالأهداف الصغيرة التى يتمكن آخرون أقل مواهب منهم وقدرات من عملها بسهولة، وخطوات الشيطان فى هذه الباب متعددة، فمنها:

١- أن يزين لمن يوسوس له من أصحاب المواهب المتميزة أن يشتغل بحاجات الفقراء والمساكين، فيظل ليله ونهاره فى دوّامة من العمل والاجتهاد النافع لكنه فى حق مرجوح، إذ يمكن له أن يكون عالمًا لحُسن حفظه وفهمه، أو أن يكون داعية للباقته وحصافته، إلى آخر ما يمكن له عمله من الأعمال التى تنفع المسلمين أكثر مما ينفعهم بعمله هذا.

٢- أو أن يزين له أن يعمل بعمل وظيفى يستغرق ساعات نهاره، وإذا قيل له: غيِّر عملك هذا إلى عمل آخر أقل بساعتين أو ثلاث من عملك الطويل هذا، تردد طويلاً وخاف من التغيير والتبديل.

ولو كان عمله نافعًا للمسلمين على وجه يصعب على غيره أن ينفعهم به كنفعه لهان الأمر، لكنك تجد من يتمسك بعمل إدارى محض يقوم به آحاد الناس ولا يتطلب موهبة كموهبته التى رزقه الله إياها.

٣- وبعض الموهوبين ممن عمل طويلاً حتى استحق التقاعد المبكر، إذا قيل له: تقاعد واعمل فى مجال آخر يناسب موهبتك، سأل عن المال، فإذا بيِّن له أن العمل الخيرى سيتقاضى عليه أجرًا يكمل له نقص راتبه بسبب التقاعد احتج بالأمن الوظيفى -أى أن العمل الخيرى قد يُخرج منه فى أى وقت- فسبحان الله كم يضيع على الناس من الأجور بسبب هذا التردد والضعف فى اتخاذ القرار، أو قل بسبب تسويل الشيطان له ووسوسته فى نفوسهم.

وأنا أقول: إنه لابد لكل صاحب تفكير فى إحداث أثر عظيم فى الناس أن يكون عمله مساعدًا له على هذا كأن يعمل فى عمل خيرى أو تربوى أو اجتماعى، أو على الأقل أن يكون عمله خفيفًا لا يستغرق منه وقتًا طويلاً، أو أن يستطيع أن ينجز فى أثناء العمل شيئًا من الخطوات الموصلة إلى هدفه.

لكن تصور أن موظفًا صاحب مواهب يُرجى منه عمل شىء كبير فى دنياه لكنه يعمل فى دائرة وظيفية إدارية يستقبل الجمهور فيها منذ بدئه العمل إلى نهايته، لا يكاد يستطيع أن يتفرّغ ولو عشر دقائق لنفسه، بالله عليكم هل سينجز هذا شيئًا ذا بال؟! وهل سيترك الأثر العظيم المطلوب؟! أنا أشك كثيرًا فى استطاعته عمل شىء إلا أن يغير عمله هذا إلى عمل آخر، والله أعلم.

وكل عظماء التاريخ من مرسَلين وأنبياء ومؤثرين وفاعلين كان لهم من أوقاتهم قدر عظيم خاص بهم لا ينازعهم فيه غيرهم من الناس، وهم أضن بوقتهم من الأم برضيعها، لكن هذا لا يفهمه أكثر أصحاب المواهب اليوم الذين يظن فيهم أنهم يستطيعون عمل شىء عظيم فى دنيا الناس.

ولذلك تجد أن مدرّس الجامعة الموهوب المربى الذى يحتك بطلابه ويوجههم ويرشدهم ويكون له فيهم أثر غير قليل يفرح إذا حُوِّل إلى رئيس قسم أو عميد، وحقه أن يُعزَّى.

وتجد أيضًا عددًا من أصحاب المواهب والقدرات قد يُرقون إلى مناصب تحجز عن الناس قدراتهم ومواهبهم، وتشغلهم إلى الحد الذى لا يتمكنون معه من إنجاز عمل مكافئ لمواهبهم وقدراتهم، وفى هذا تضييع واستجابة لتزيين الشيطان.

ملحظ مهم:

لابدّ لصاحب الهدف العظيم أن يقرن هدفه دومًا بأمرين اثنين مهمين:

الأول: الشعور بالتحدى بينه وبين نفسه لبلوغ هدفه، وأنه مهما واجهه من مصاعب ومشكلات فإنه سيتغلب عليها بحول الله وقوته ليصل إلى مراده، وهذا الشعور مهم جدًا للقفز فوق العقبات والحواجز، وبدونه ربما يئس المرء وانقطع، أو كَلّ وضعف عن بلوغ مراده.

الآخر: شىء من المخاطرة وقليل من المغامرة يمزجهما مع هدفه الذى يريد الوصول إليه، ولابدّ له من هذا، أما إن قام يحسب ألف حساب لكل خطوة من خطواته، وكل حركة يريد إحداثها فإنه يضع العربة بنفسه أمام الحصان، ولن يصل إلى شىء ملموس بسبب تخوفه وتوهمه، ولا أريد من كلامى هذا أن يصل المرء إلى درجة التهور لكن أريد أمرًا وسطًا، بين بين.

يقـول تيد تيـرنر مؤسس شـركة CNN : «يجب أن تجرب دائمًـا وتخاطر وتغامر، لأنه ليس لديك سوى سنوات محدودة لتحقيق أحلامك».

وتأثر تيـرنر بقـول هيلين كـيلر -التى سـقت طرفًا من أخـبـارها فى هذا الكتاب- عندما قالت:

«إما الحياة مغامرة يومية أو لا شىء».

وكان يقول: إن الخوف من المخاطرة هو ما يجب أن يخافه كل إنسان.

وكان قد اتخذ منهجًا له من القول التالى:

إن المسـتـثـمر الذى لا يتـخذ قـرارًا إلا عندمـا يتأكـد من أن الإحصـاءات ستتطابق مع وجهة نظره، والمستثمر الذى ينتظر الموافقة من السوق يحكم على نفسه بالفشل، وحياة تيرنر مليـئة بالمخاطرات والمغامرات التى تستحق أن يُنظر فيها[1].

وكـان يقول: «إن أسـعد لحظة فى حـيـاتى هى عندما يقـول الناس: إن موضوعًا ما سيفشل وأثبت لهم العكس.

لقد عارضنى الجميع فى كل خطوة، ووافقنى الجميع بعدما قمت بها»[2].

بمثل هذه الروح تتحقق الأهداف العظيمة ولا تبقى حبيسة العجز، أو رهينة التخوف والتباطؤ والضعف، والله أعلم.

***

---

(١) انظر «حكايات كفاح»: ٨٧- ١٠٠.

(٢) المصدر السابق: ٩٨.

الركن الرابع: العلم الواسع والثقافة المناسبة

وهذا أمر مهم لكن لابد أن يُفهم فهمًا جيدًا، وذلك أن المقصود بالعلم الواسع إنما هو ما يحتاجه الشخص فى المجال الذى يعمل فيه، فالذى يريد أن يترك أثرًا علميًا طبيعيًا ضخمًا فلابد له أن يكون صاحب علم واسع فى مجال تخصصه، فالفيزيائى لن يُحدث التغيير المطلوب إذا نقص علمه فى الفيزياء، وكذلك صاحب الرياضيات والعلوم المختلفة، والطامع فى أن يترك أثرًا نافعًا فى أعمال الخير والبر لابد أن يكون على دراية تامة بطرقها وأساليبها، والطامح فى إحداث أثر عظيم فى الدعوة إلى الله تعالى وهداية الناس لابد له من معرفة واسعة بها وتجربة طويلة لها، وهكذا...

أما الثقافة فهى كلمة معاصرة، إذ لم يعرف العرب استعمال هاته الكلمة على هذا النحو الذى تدل عليه اليوم، وإن كان للكلمة نوع اتصال بالمعنى اللغوى القديم[1].

وقد حار المفكرون فى تعريف جامع للثقافة[2]، ولكن هناك تعريفات قريبة من واقع الكلمة، فمنها أنها: «مجموعة من الصفات الخُلُقية والقيم الاجتماعية التى يتلقاها الفرد منذ ولادته... والثقافة على هذا هى المحيط الذى يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته»[3].

---

(١) انظر: «لمحات فى الثقافة الإسلامية»: ٢٢- ٢٦.

(٢) «نحو ثقافة إسلامية أصيلة»: ١٧.

(٣) «الشخصية الناجحة»: ٢١٣.

أو هي «الصورة الحية للأمة، فهي التي تحدد ملامح شخصيتها وقوام وجودها ، وهي التي تضبط سيرها في الحياة، وتحدد اتجاهها فيها، إنها عقيدتها التي تؤمن بها، ومبادئها التي تحرص عليها، ونظمها التي تعمل على التزامها، وتراثها الذي تخشى عليه الضياع والاندثار، وفكرها الذي تود له الذيوع والانتشار»[1].

ويقولون: «تعلّم شيئًا عن كل شيء لتكون مثقفًا، وتعلّم كل شيء عن شيء لتكون عالمًا»[2].

والثقافة ضرورة لمريدي التغيير الواسع لا غنى لهم عنها، سواء أكانت ثقافة إسلامية أم ثقافة إنسانية عالمية، وذلك حتى يتمكن المرء من معرفة واقعه على ما هو عليه من غير استهانة ولا مبالغة، وهاته المعرفة ضرورة لمواجهة مكر الأعداء وكيدهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين، وهي ضرورة للداعية الراجي تقويمَ قومه وردهم إلى حظيرة الإسلام والاقتناع بشعائره وشريعته وتطبيقها في واقع الحياة.

وكم من الأشخاص في زماننا ممن يسمون دعاة لا يستطيع الواحد منهم أن يتحدث الحديث الجيد المقنع عن الإسلام وشعائره وشرائعه، ولا يستطيع مجادلة أهل الضلال والشبهات، ولا يقدر على فهم واقعه على ما هو عليه، ولا يُظن بي المبالغة فهذا واقع في دنيا الناس، ولم آتِ بشيء -في هذا الكتاب- يُعد من الخيال أو التخرصات أو المبالغات- إن شاء الله تعالى -فكل ما ذكرته واقع مفتقر إلى معالجة جادّة، ولئن سألت أولئك: لماذا هم كذلك؟

---

(١) «لمحات في الثقافة الإسلامية»: ١٣ . (٢) «نحو ثقافة إسلامية أصيلة»: ١٨ .

لأجابوا: لأننا لا نعلم ولا ندرى، فنحن لا نقرأ، إذًا هم رضوا بعجزهم بل بعضهم يفخر به بقوله: أنا لا أحب القراءة ولا أستطيعها.

وهذا إن لم يقرأ ليعلم ويدعوَ عن علم فمَن يقرأ إذًا؟!

والمرء إن تخلّف وضعف فى باب الثقافة فلم يتزود ولم يُحْنِ ظهر ويسهر ليله فمَن يتصدّر ويتحدث عن الإسلام؟! أيتحدث عنه الكفار، أو أعداؤه ممن جهلوه، أو عامة الضعاف الذين ليسوا مؤهلين فى الأصل لهذا؟!

فكيف يطمع طامع فى إحداث أثر كبير وتغيير نافع وهو محدود الثقافة لا يكاد يدرى عن دنيا الناس الدراية التى تؤهله لضبط مسيرته، وفهم واقعه، ومعرفة موازين الناس، والمؤثرات التى تؤثر فيهم، والعوامل التى تُنهضهم أو تُقعدهم.

ولقد شاهدت فى حياتى جملة من الصالحين العاملين إذا جلست إليهم وحاورتهم صدرت عن ضعف وهشاشة فى ثقافتهم وفى فهم ما يدور حولهم، وبالتالى تقويمه تقويمًا حكيمًا ومنصفًا، فأكثر الصالحين العاملين اليوم لا يعرف مزايا دينه معرفة تمكِّنه من محاورة الآخرين وإقناعهم بها، ولا يعرف جوانب الضعف عند الآخرين ليحاجهم بها، ولا يدرى عن النظم السياسية إلا القليل الذى لا يغنى، ولا يلم بجوانب الاقتصاد العالمى، والإعلام العالمى وتأثيرهما الواسع، ولم يطلع على التاريخ الإسلامى وتواريخ شعوب الأرض الاطلاع الذى يؤهله لاستقاء العبَر والعظات، ومعرفة السنين والقواعد، فكيف نرجو من أمثال هؤلاء أن يكون لهم سعى جيد لتحصيل الأثر النافع، ولو فرضنا أن لهم سعيًا جيدًا وعملاً قويًا لكن يظل مبتورًا بسبب عجزهم عن فهم التاريخ والواقع الفهم الذى يمكنهم من إحكام الأعمال، وضبط المسيرة، ومن ثم الوصول إلى الأثر النافع الجليل.

فدونكم جماعة التبليغ، وهى جماعة نشطة عاملة، نفع الله بها، لكن قعد بها عن بلوغ الأثر النافع والتغيير الواسع قلة علم عدد كبير من أفرادها، وضعف ثقافتهم ضعفًا لا يُغتفر فى هذا الباب، لذا نجد أثرهم محدودًا إذا تحدثنا عن الآثار الخوالد والأعمال الباقيات، وجماعة التبليغ مثال على سائر الجماعات والهيئات والمؤسسات ممن نقص علمها أو ضعفت ثقافة أفرادها إلى غاية لا تقبل.

وقد قطف اللادينيون والمتحررون ثمار الأعمال العظيمة فى العالم الإسلامى التى قامت لتخرج الاستخراب العالمى من أرضها، وقدّمت تضحيات هائلة، فجاء هؤلاء الرهط فقطفوا الثمار، وتولوا مقاليد الأعمال، وكانوا فى كثير من البلاد الإسلامية أسوأ على أهلها من الاستخراب وأشد خطرًا وأثرًا، ولئن سألت عن السبب فى هذا، وكيف استطاع هؤلاء أن يفعلوا هذا الفعل العجيب لكان الجواب هو نقص الوعى، وقلة الثقافة، وضعف العلم الذى كان متفشيًا فى الناس عامة، وفيمن جاهدوا وأخرجوا الاستخراب من أرضهم خاصة، وهذه الآفات هى من الأمراض المؤثرة التى كانت قد أصابت أكثر العاملين لتحرير أوطانهم، وخدعهم بها أصحاب اليسار واليمين، واستطاعوا أن يقصوهم بعد ذلك ويتسلموا مقاليد الأمور.

- هذه هى الأركان الأربعة التى أتيت على ذكرها، فإن اجتمعت للشخص، وساعده زمانه، وأسعفته أقداره، حقق أمرًا عظيمًا جليلاً، وترك أثرًا نافعًا كبيرًا فى دنيا الناس.

ولسائل أن يسأل: إذا تخلّف شىء من هذه الأركان أو ضعف هل يستطيع المرء أن يحقق شيئًا ذا بال، أو يترك أثرًا ناتجًا عن عظائم الأعمال؟

هذا هو موضوع المبحث القادم.

المبحث الخامس:

أثر فقد شيء من هذه الأركان أو ضعفها

مَن فقد واحدًا من هذه الأركان أو ضعفت عنده فإن عمله لتحقيق الأثر العظيم فى دنيا الناس يضعف تبعًا لذلك الفقد أو الضعف، وربما تلاشى العمل واضمحل والعياذ بالله.

لكن لا يعنى هذا أن الشخص يستسلم ويترك العمل، لا، بل عليه أن يعمل لسد النقص وإصلاح الخلل فى هذه الأركان، وليسارع فى هذا حتى يستقيم له عمله، وينتج الأثر النافع المحمود.

أثر فقْد أو ضعف الركن الأول: حُسن الصلة بالله:

وهو الركن الأعظم، فمَن فقده فقد عمله كله والعياذ بالله، أو فقد منه بمقدار ما فقد من الصلة بمولاه، وهناك أمور قد يُتسامح فيها فى هذا الباب كنقص فى التطوعات، أو تفريط فى بعض السنن، أو إتيان شيء من المكروهات، أو إلمام بأمور من الصغائر، أو حدوث شيء من الغفلة وترك للأذكار، لكن الذى لا يتسامح فيه أبدًا هو النية والقصد، فمن كانت نيته مدخولة مغشوشة لم يبارك الله له فى عمله، وأراه سوء نتائجه عوضًا عن الأثر المحمود الذى كانت تطمع به نفسه المريضة، وأقرب مثال على هذا الجهاد الأفغانى الذى كان ملء السمع والبصر، وكان محط آمال

المسلمين، ونشيدهم الذى يُنشدون، وطلبهم الذى يَنشدون، ثم إن الله تعالى طرد عنهم الروس الملاحدة، وأورثهم الأرض، وسهّل لهم تسلُّم مقاليدها، وأسلس لهم القياد، ومكّن لهم، حتى إذا دُخلت نية بعض قادتهم، وفارقها الإخلاص، وصار يضرب بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا، طمعًا فى الرياسة، وتطلعًا إلى الدنيا، وكاد بعضهم بعضًا، وتآمر بعضهم على بعض، حتى إذا صاروا كذلك سلّط الله عليهم مَن سلبهم ملكهم، وأذهب أثر جهادهم، وقوّض عملهم الطويل، وصاروا كالأطلال الدوارس، بعد أن كانوا أسودًا أشاوس، وذهبت مكانتهم من صدور الناس أدراج الرياح، وصارت أعراضهم كالكلأ المستباح، وحصل ما خاف من حصوله الصالحون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

والدليل على أن النية قد فسدت، وأن الإخلاص قد خُدش بل مزق، أن كثيرًا من الصالحين من أهلهم ومن المسلمين من خارج بلادهم ومن داخلها راجعوهم، وكلموهم، وحذروهم، وذكّروهم بالله لكن آذان أكثرهم كان قد أصمّها حب الدنيا والتعلق بالرئاسة، فأصروا على اللجاج والخصومة، وهناك حلَّت بهم سنة الله التى لا تتخلف ولا تتبدل، فجرى ما جرى، مما يحسن الإقلال من ذكره وأن يُطوى ولا يروى، والحمد لله على كل حال.

وكم سمعنا من أعمال خير عملها أشخاص ثم إنها لم تمكث فى الأرض إلا كمكثهم أو أقل.

وكم سمعنا من أعمال عظيمة عُمِلَت ثم طواها النسيان، وأصبحت أثرًا بعد عين، وماءً في غِرْبال ومثال ذلك: الاتحاد السوفيتي الهالك، فقد أنشأه رجال كان لهم الهدف العظيم والعلم الواسع، والصفات الشخصية الجيدة، لكن انظروا لما افتقدوا الركن الأول وهو الصلة بالله تعالى كيف أهلك الله دولتهم، وأذهب عملهم، فصار كأمس الذاهب لا قيمة له، وطواه النسيان حتى إن الأجيال التي أتت بعد ذهاب دولتهم لم تعد تعرفهم ولا تذكرهم، والحمد لله رب العالمين.



أثر الكبائر فى محق الآثار

ومن الأمور الدالة على ضعف الصلة بالله، ومن ثم ضعف العمل وأثره هو خلط العمل بالمعاصى الكبائر، والاستهانة بهذا الأمر والإقدام عليه، وكم من الناس من سعى فى الأرض سعيًا حثيثًا، وضرب فيها يمينًا ويسارًا سنوات طويلة وترك سعيه هذا وضربه ذاك فى الأرض آثارًا ربما تكون ملء السمع والبصر، لكنها آثار ناقصة لم تكتمل، ولم يبارك الله تعالى فيها، فهى كالمولود الخِداج الناقص الذى يظل يعذب أهله طويلاً وربما فى النهاية لا يمكث فى الأرض، أو إن يعش عاش ناقصًا ضعيفًا لا يصلح للأعمال الجليلة العظيمة.

ويحضرنى لهذا مثال من عصرنا مهم، يدل دلالة واضحة على ما أريد، ألا وهو «البنك العربى» وإنشاؤه ليكون نواة لاقتصاد مستقل فى زمن الاستخراب العالمى، وكان كما أراد له صاحبه أن يكون، وفتحت له فروع فى أماكن شتى، وانتشر فى البلاد العربية لكنه لقيامه على الربا، وعدم رضا صاحبه بتحويله إلى مصرف إسلامى -على أنه قد قُدم له النصح فى هذا- ظل تأثيره ناقصًا، وصار عمله خداجًا، وإليكم القصة: قصة إنشائه ومن ثم عدم رضا صاحبه بتحويله إلى مصرف إسلامى، وقد حكى قصته الأستاذ توفيق الشاوى[1] الذى قابل

---

(١) أحد القانونيين الإسلاميين، وأحد من قام مشروع المصارف الإسلامية على أكتافهم، وكان له عمل متصل دائب فى الجزائر قبل وأثناء وبعد ثورتها، وكان له جهود فى المغرب العربى، وفى المملكة العربية السعودية مع ملكها فيصل رحمه الله، وله عدد من المؤلفات فى القانون والاقتصاد والسياسة وهو الآن فى القاهرة يصارع المرض بعد فالج نزل به.. عافاه الله.

مؤسسه عبد الحميد شومان[1] فى المغرب وقص عليه خبر كفاحه فى إنشاء المصرف، ومن ثم ما جرى من إلحاح الأستاذ الشاوى عليه بتحويله إلى مصرف إسلامى، واستغرب الرجل من الفكرة ورفضها، وإليكم ما قاله الأستاذ توفيق واصفًا العلاقة بين عبد الحميد شومان ومحمد طلعت حرب[2] وناقلاً لقصة تأسيس «البنك العربى»:

«لم يكن لى الحظ فى لقاء طلعت حرب أو الحديث معه ولكنى سعدت بلقاء المرحوم عبد الحميد شومان لأول مرة فى الرباط عاصمة المغرب الأقصى فى منزل صديقه المرحوم الشيخ منصور قدارة الذى كان سفير ليبيا فى المغرب فى عام ١٩٦٠، وروى لى قصة كفاحه وحياته، وعرفت منه حقيقة لا يعلمها كثيرون وهى أن فكرة إنشاء البنك العربى كانت ثمرة لاتصاله بطلعت حرب وإعجابه به.

---

(١) وُلِدَ بقرية بيت حنينة قرب القدس سنة ١٣٠٧ ونشأ بها يعمل فى تكسير الحجارة، وذهب إلى أمريكا فعمل بائعًا متجولاً، ثم افتتح محلاً ١٨ عامًا، ثم عاد إلى القدس وأنشأ «البنك العربى» وله ٥٠ فرعًا فى الدول العربية وغيرها، توفى بمدينة براغ فى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٣٩٤، ونقل إلى القدس ليدفن بها. انظر «الأعلام»: ٣/ ٢٨٦.

(٢) محمد طلعت باشا بن حسن بن محمد حرب زعيم مصر الاقتصادى، ولد بالقاهرة سنة ١٢٩٣، وذكر أن أصله من قبائل حرب بالحجاز، تخرج فى مدرسة الحقوق بالقاهرة، وعين مترجمًا فمديرًا لبعض الشركات، ثم أنشأ شركة التعاون المالى ثم دعا إلى إنشاء بنك مصر فعورض لكنه دأب إلى أن نجحت دعوته فأنشأ «بنك مصر» وألحق به فروعًا وشركات ضخمة كان معظمها من نتاج تفكيره وجهده، ولم تحسن مكافأته فى آخر أيامه، وهو كاتب باحث له عدة كتب ورسائل دافع فى بعضها عن الحجاب، وكان من أعضاء الجمعية الجغرافية، توفى بالقاهرة سنة ١٣٦٠ رحمه الله تعالى. «الأعلام»: ٦/ ١٧٥، ١٧٦.

قال شومان:

«خرجت من القدس، من جوار المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله، متوجهًا إلى «نيويورك» وليس معى شىء من المال، لقد أقرضنى بعض أقاربى ثمن تذكرة السفر إلى أمريكا بالدرجة الرابعة على ظهر السفينة لأبحث عن عمل.

سافرت وليس معى من سلاح للكفاح فى ميدان الحياة سوى الاعتماد -على الله ثم- على نفسى، فاعتمدت أولاً على ذراعى هاتين -وأشار بهما إلى أعلى- لأننى لم أدخل مدرسة ولم أحمل شهادة.

بدأت حياتى الجديدة فى نيويورك، عاملاً بيدى، فمارست جميع الأعمال، من أعمال البناء إلى العمل فى المصانع حتى استقر بى المطاف فى مصنع للنسيج كان يملكه أمريكى من أصل أيرلندى، لقد قربنى إليه أنه كان يكره الاستعمار البريطانى، بل كان يكره الاستعمار الصهيونى، ويعتبره أخطر من الاستعمار البريطانى، إنه كان يحسدنا نحن العرب فى فلسطين؛ لأننا نرفض الصهيونية ونقاومها، إنه كان يقول: إن هذه ميزة لنا على جميع شعوب العالم التى لم تشعر بهذا الخطر، وفى مقدمتها أمريكا التى يقول: إنها خرجت من السيطرة البريطانية لتقع فريسة للسيطرة الصهيونية، إنه كان يقول لى: «أنتم أحسن حظًا منا فى هذه البلاد العظيمة؛ لأنكم ترفضون السيطرة اليهودية وتقاومونها؛ ولذلك سيكون لديكم أمل فى التحرر من أطماعها، أما هنا فالشعب لا يحس بالقيود التى فرضتها عليه الصهيونية، فلا أمل له فى التحرر منها طالما أنه يستسلم لها ولا يفكر فى مقاومتها».

منذ بدأت حياتى فى أمريكا لم أنس قط أهلى ووطنى وخاصة أولئك الذين ساعدونى فى السـفر وقدموا لى ما يمكننى من دفع ثمن التذكـرة فى الباخرة، وتعهدوا برعاية أهلى حتى أعود لهم، لقد جعلت أمامى هدفًا لم أتحول عنه، هو أن أعـود إلى فلسطـين لأسدد ديـونى، وأرد الجـميـل للذين قـدمـوا لى مساعداتهم.

كنت أدخر من أجرى كل ما أستطيع أن أوفره، حتى تجمع لى قدر لا بأس به من المال، فعرضت على صاحب مصـنع النسيج أن أشاركه فرحب بذلك، واتسع المصنع وتضاعفت أرباحه، ثم عـرضت عليه بعد ذلك أن أشتريه كله، فباع لى نصيبه.

كنت أعيش علـى غذاء نباتى، وقـد رفضت تناول اللحم منذ أخـبرنى من أثق فيه بأن «النصارى» لا يذبحون، فحـرمت لحومهم على نفسى، ثم حرمت جميع اللحـوم واقتصرت على الغذاء النباتى بعـد أن تأكدت أنه أصح لبدنى، وسأبقى على هذا المبدأ ما حييت إن شاء الله.

كان بعض زمـلائى المهاجرين إلى أمـريكا يأخذون على ذلك، ويعجـبون منه، وظن بعضهم أننى أفعله من باب الاقتصـاد فى النفقات، ولا يفهمون أن من طبعى دائمًـا أن أرسم طريق حياتى وعملى بإرادتى وحـدها، وعندما أقرر أمـرًا لا أقبل التـراجع فيـه لأى عذر من الأعـذار، وهذا هو شـأنى بالنسبة للتـدخين، فأنا لم أدخـن قط، ولن أدخن، وعندما أنـشأت «البنك العـربى» التزمت بمـبدأ ألا يعمل مـعى فيـه من يدخن، وبذلك أعطيت لغيـر المدخنين فرصة أوسع للعمل، وميزة لا تتوفر لمن يستسلمون للتدخين، هذا هو مبدئى.

أذكر أننى توجهت مرة إلى طبيب للعيون فى نيويورك، فأصر على أنه يلزمنى عمل نظارات، وعملتها فعلاً وذهبت بها إلى غرفتى، وعندما وضعتها على عينى ونظرت إلى وجهى فى المرآة، وجدتها لا تعجبنى، وأدركت أننى لن أصبر على حملها كلما أردت السير، فألقيت بها من النافذة، ولم أقبل أن أضع نظارة منذ ذلك اليوم، وقد مضى على ذلك ما يزيد على أربعين عامًا، وعيناى تكفيانى، ولا أحتاج لنظارات، وسأبقى كذلك طول حياتى، كما أننى لم أشرب الخمر، ولا أحب رؤية من يتعاطاها أمامى.

ولم يعجبنى سلوك كثير من المهاجرين، الذين نسوا خصال مجتمعهم العربى فى أوطانهم، واندمجوا فى المجتمع الجديد بكل ما فيه من صفات وسيئات وخاصة شرب الخمر؛ ولذلك كنت أتجنبهم وأبتعد عنهم، كان أكثرهم من نصارى لبنان، ولقد حدث أن التقيت بأربعة منهم، وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث، ودعونى إلى طعام وشراب فرفضت، وسألونى عن السبب، وفهم بعضهم من حديثى أن الخمر نجس، وأن اللحم غير المذبوح حرام على المسلمين، وأحسوا باستعلائى عليهم، فبدرت من أحدهم إهانة للإسلام والمسلمين، فهجمت عليه ولكمته على وجهه لكمتين، ففر زملاؤه، وفر هو كذلك هاربًا، ولم أرهم بعد ذلك، إننى أعتز بإسلامى ولا أتسامح مع من يهاجمه أو يجرحه».

كان محدثى طويل القامة عالى الهامة، وعندما وصل فى حديثه إلى تلك المشادة بينه.وبين «النصارى» واللكمات التى كالها لأحدهم على وجهه لم يكتف بالتعبير عن ذلك بكلامه، بل فوجئت به يضرب بلكمتيه يمينًا

ويسارًا، ومن حسن حظى أن مرت اللكمات من فوق رأسى قبل أن أفكر فى تفاديها.

لقد كانت هوايته ورياضته المفضلة هى المشى على الأقدام، وكان يمشى وحده ساعات طويلة، إذا لم يجد من يرافقه من أصدقائه، وقد عرفنى به صديقنا السيد منصور قدارة سفير ليبيا فى المغرب آنذاك، وقد استراح لصحبتى وأعجبت بشخصيته، وعندما دعانى للخروج معه لنتمشى حذرنى منصور قدارة بقوله: «اعمل حسابك على ساعتين، مشيًا على الأقدام، فإن الرئيس لا يمشى أقل من ذلك».

بعد أن ابتعدنا عن مدينة الرباط، تركنا السيارة ومشينا على أقدامنا فى طريق «الرمانى»، وقد نسيت تعب المشى، وأنا أستمع إلى حديثه عن حياته وكفاحه من أجل إنشاء «البنك العربى».

«بعد بضع سنوات من العمل والكفاح فى أمريكا بدأت أفكر فى العودة إلى فلسطين الحبيبة، وهزنى الشوق لأهلى وأحبابى بالقدس الشريف، وأرضه الغالية، وقعدت أحسب ما ادخرته من كسب يدى وأرباح تجارتى، وأفكر فى المشروعات التى يمكن أن أبدأها فى فلسطين عندما أعود إليها.

ذهبت لزيارة أحد العرب فى أمريكا، وكان معه عدد من المهاجرين يتحدثون عن أخبار فلسطين والعالم العربى، وسمعت حوارًا بينهم بشأن رجل ظهر فى مصر يسمى «طلعت حرب» دعا إلى إنشاء «بنك مصر»، وفهمت من الحوار أن مشروعه فى طريق النجاح والنمو وأنه يلقى إقبالاً وتأييدًا من جميع

طوائف الشعب المصرى وطبقاته، وأن العرب يستبشرون بذلك؛ لأنه أنشأ أول بنك فى العالم تستعمل فيه اللغة العربية وحدها فى كل أعماله ووثائقه وحساباته، وأكثر من ذلك فإنه لا يعمل فيه أجنبى واحد، بل كل العاملين به من المصريين، ولقد كانت الأحاديث التى سمعتها تعبر عن حماس الجميع لهذا المشروع المصرى العربى.

ورغم أننى لم أشترك فى الحوار إلا أننى تأثرت به إلى درجة جعلت هذا الموضوع يشغل ذهنى طوال الليل، وخطر لى أننى لابد من أن أرى طلعت حرب بمجرد عودتى لفلسطين وأتحدث معه، وأشترك معه فى هذا البنك بالمال الذى أحمله معى من أمريكا، وفكرت فى أن أبعث له برسالة.

إننى لم أتعلم القراءة والكتابة بأى لغة، وكان ذلك من أشد العقبات التى واجهتنى فى حياتى، ولو سردت لك بعضًا من هذه الصعوبات لكنت فى حاجة لأيام وساعات طويلة، ولكننى والحمد لله استطعت أن أشق طريقى فى الحياة وأصبح مؤسس ورئيس مجلس إدارة البنك العربى العملاق، وأنا أمى لا أقرأ ولا أكتب، ورغم إلحاح كثير من أصدقائى فإننى لم أجد الوقت الكافى لأبدأ فى تعلم القراءة والكتابة.

قررت أن أعود لمنزل لصديقى الذى اجتمعنا به بالأمس ليكتب لى الخطاب، وقد أعجب الرجل بفكرتى، وأثناء حوارى معه خطر لى خاطر أكثر جرأة، فطلبت منه أن يكتب أننى عازم على العودة إلى القدس الشريف لإنشاء بنك مماثل لبنك مصر، وأننى أرجو أن يشترك معى بنك مصر فى تأسيسه حتى

نستفيـد من خبرة إخواننا المصريين ومعاونتهم، واقـترحت أن يكون اسمه بنك «مصر فلسطين» أو «البنك المصرى العربى».

تحمس الكاتب نفسه للفكرة، وأضاف فى الخطاب أن كثيرين من العرب المقيمين فى أمريكا مستعدون للمساهمة فى هذا المشروع، وهم يعقدون آمالاً كبيرة على إجابته على هذا الخطاب ليبدؤوا فى إجراءات التأسيس بالتعاون مع بنك مصر ورجاله».

توقف محدثى عن الكلام فقلت له متلهفًا: وهل أجاب طلعت حرب على هذا الخطاب؟

«نعم.. ولكنى قضيت ليالى طويلة أترقب هذا الجواب، وأنا بين اليأس والرجاء، تراودنى الشكوك فى وصول خطابى إلى مصر واطلاع رئيس بنك مصر عليه واهتمامه به ورده عليه، ولا أستطيع أن أصف لك سرورى عندما تسلمت رده على خطابى، والذى زادنى سرورًا أن الإجابة كانت مشجعة، وأن الرجل رحب بالفكرة وقال: إنه يتمنى أن ينشأ فى كل بلد عربى مثل هذا البنك، وأن فلسطين هى أقرب بلد عربى لبلادنا وقلوبنا، فهى جديرة بأن تكون البادئة، وإنه مسرور أكثر؛ لأن المقيمين فى أمريكا من العرب أو المهاجرين إليها مازالوا يفكرون فى مصالح بلادهم ويتابعون أخبارها... إلخ.

لم أضيع وقتًا كثيرًا فى تصفية جميع أعمالى فى أمريكا، والاستعداد للرحيل عنها عائدًا إلى القدس سعيدًا بأننى وجدت الفكرة التى تجعل عودتى لبلادى بداية الجهاد من أجل شعبنا العربى فى ميدان يحتكره للآن أعداؤنا،

ويتخذون هذا الاحتكار وسيلة لاستغلال بلادنا واستعباد أمتنا والقضاء على مقومات شعوبنا ومجتمعاتنا.

حملت معى عناوين جميع أصدقائى من العرب الذين يقيمون فى أمريكا بصفة دائمة أو مؤقتة، الذين وعدونى بالمساهمة فى تأسيس البنك المصرى العربى الذى سيكون أول امتداد لبنك مصر الذى أنشأه طلعت حرب، وأول بنك عربى خارج مصر يولد فى حجر مؤسس بنك مصر، وينشأ فى رعايته وحضانته، وودعنى أصدقائى عند سفرى على أننى ذاهب إلى القاهرة لمقابلة طلعت حرب نيابة عنهم وباسمهم، وأن القدس الحبيبة ستكون محطة فى طريقى إلى مصر العزيزة.

كان أول ما فعلته فى القدس عقب وصولى إليها ولقائى مع أهلى وأصحابى أن أعلنت لهم المشروع الذى عدت من أجله، وطلبت منهم أن يستعدوا للمساهمة فيه، وأن يدعوا كل من يعرفونه لذلك، وأضفت من عندى أن طلعت حرب -أبا الاقتصاد المصرى ومنشىء بنك مصر- سيكون رئيس هذا البنك وراعيه، وزدت بأن أعلنت لهم أننا اتفقنا مع طلعت حرب على كل شيء بما فى ذلك اسم البنك الذى سيربط بين شعب مصر وشعب فلسطين. . . إلخ.

وفى نفس الوقت بعثت برسالة عاجلة إلى طلعت حرب بنفس العنوان الذى أرسلت عليه الخطاب السابق، وشرحت له فيه ما يلقاه المشروع من تأييد حماسى لدى جميع من علم به من أهل فلسطين سواء منهم المقيمون فى أمريكا أو على أرض فلسطين الحبيبة، وانتظرت الجواب كما انتظرت جواب

خطابى السابق. ولكننى كنت واثقًا من الإجابة، ولم تساورنى الشكوك التى ساورتنى عندما كنت أنتظر جواب الخطاب الأول، فضلاً عن أن المقابلات والاجتماعات مع معارفى وأصدقائى الراغبين فى المساهمة فى البنك شغلتنى عن كل شىء، إلا عن التفكير فى برنامج أول زيارة يقوم بها طلعت حرب إلى بلادنا لاتخاذ الخطوات النهائية للتأسيس.

جاء الجواب متأخرًا أكثر مما كنت أتوقع، وفوجئت به، ولا أريد أن أصف لك شعورى عندما قرأت عبارات الأسف التى بدأها طلعت حرب فى خطابه؛ لأنه لا يستطيع أن يفى بما وعد به من قبل؛ لأن مجلس إدارة بنك مصر يرى أن البنك المصرى مازال وليدًا ناشئًا وليس لديه من الإمكانات ليسهم فى أى مشروع آخر خارج مصر؛ ولكنه مع ذلك يتمنى لنا النجاح فى المشروع معتمدين على أنفسنا فى حدود استطاعتنا، والله المعين.. وهو المستعان».

وصل تأثر شومان أقصاه عندما وصل إلى هذه النقطة، ووقف كأنه يلهث أو يسترد أنفاسه بعد جهد كبير لينسى الساعات الأليمة التى مرت به بعد وصول هذا الخطاب، وكان أكثر ما قاساه هو ما لقيه من انصراف الكثيرين ممن تحمسوا للمشروع ووعدوا بالمساهمة فيه، ولم يثبت معه إلا أقاربه وبعض المخلصين من أصدقائه مجاملة له، وكأنهم يئسوا من نجاح المشروع.

قلت له كأنما أعزيه، وأنا أشير إلى السيارة لنعود بها من حيث جئنا بعد هذا المشوار الطويل: لابد أن نعود، فوافق مسرعًا كأنما يفر من ذكرى تلك الأيام التى مر بها، وسرنا إليها صامتين، وأنا لا أجرؤ على توجيه أى سؤال جديد خشية أن يزيد ألمه.

وفى طريق العودة وقـفنا بالسيـارة على شاطئ «وادى الرقـراق» ذلك النهر الواسع الذى يحتـضن مدينة الرباط، ثم وضع يده فـوق كتـفى كأنما يريد أن يتكىء عليها، وقال لى وهو ينظر إلى مياه النهر الهادئة الجامدة كأنها دموع قد تحجرت:

«إن طلعت حـرب كان المثـل الذى أقتـدى به، رغم أنه خـذلنى، وتركنى أعتمد على نفسى فى السنوات القليلة التى مرت بعد هذا الخطاب، كنت غارقًا فى مـشـاكل البنك وقـضايـاه، ولم يكن لى إلا هدف واحـد: هو أن ينجح مشروعنا، وأن أبعث برسالة إلى طلعت حرب ليحضر لزيارتنا فى القدس.

وكنت مع ذلك أتتـبع أخبار مـصر وبنك مصـر، وأخبـار طلعت حرب، وعلمت منها أن الرجل لم يخلف وعـده الذى بعثه لى باختـياره؛ ولكنه لقى معارضة عنيفة من مجلس الإدارة، وأن الذى كان يقود المعارضة ويحمل رايتها مجموعة من اليهود أمـثال داود عدس وشيكوريل وأعوانهما الذين تسللوا إلى مجلس الإدارة بحكم الأسهم التى حصلوا عليها باعتبارهم مصريين.

وكانت حـجتهم أنهم شـاركوا فى بنك مصـر على أساس أنه بنك «وطنى مصرى»، وأن الوطنية المصرية هى التى كـانت سبب نجاحه؛ ولذلك فلا يجوز المغامرة به فى نشاط خارج حدود مصر.

ولم أدهش بعد ذلك عندمـا علمت أن هذه المجموعة اليهـودية قد تآمرت لإخراج طلعت حرب من الـبنك الذى أنشأه، وكان بالنسبة لـه حياته وأمله، وأن أحد رؤسـاء الوزارات المصرية هو الذى نـفذ هذه المؤامرة وأخـرج طلعت

حرب من بنك مصر فى بداية الحرب العالميــة الثانية، ومات -رحمه الله- دون أن ينال من حكومة مصر ما كان يستــحقه من تكريم يتناسب مع ما كان شعب مصر يكنه له من تقدير واعتراف بالجميل.

ولكن شعب مصر مازال يعتبره أبا الاقتصاد المصرى، وبطلاً خالدًا من أكبر أبطال تاريخه الحديث، أما العــرب جميعًا فإنهم سيذكرونــه دائمًا باعتباره أول من أنشأ بــنكًا عربى اللغة، فــوسع مجــال الوطنية لتكون عــربية لا مــحلية، وسيــبقى طلعت حــرب نموذجًا خــالدًا للرجال الذين يســتطيعــون أن يحولوا أفكارهم إلى مشروعات حية تنمو وتفرض نفسها على واقع المجتمع ومصيره.

وبالنسبة لى خاصة، لقد كان لى قــدوة وإمامًا، وسوف أذكره بكل خير ما حييت؛ لأن البنك العربى الذى أنشأناه فى «القدس الشريف» كان امتداد لبنك مصر الذى أنشأه طلعت حرب فى القاهرة»[1].

هذه قصــة مؤثرة لكنهــا تدل دلالة واضحة أن الإنســان إذا لم يجتــهد فى ضبط عملــه بموجب الشريعة فإن أثر هذا العــمل يكون ناقصًا ضعــيفًا، وربما انقلب وبالاً عليــه، وإليكم نصح الأســتــاذ توفــيق له بأن يأخذ بــالمعامــلات الإسلامية فى مصرفه لكنه تنصّل وتمحك:

«قبل مغادرة ألمانيا فكرت فى عرض الأمر على السيــد/ عبد الحميد شومان وكنت أعــرف أنه يقضى الصــيف فى سويســرا، فاتصــلت به فى منزله بمدينة «زيورخ» والتقــيت معه فى الــبنك السويسرى الذى يملكه «البــنك العربى» فى

(١) «اقتصاد المستقبل»: ٣ - ١٤.

سويسرا ليكون قاعدة لعملياته فى الخارج، وهناك عرضت عليه الفكرة، وذكرته بأحاديثنا السابقة، فقال: إن أول شىء يمكن عمله هو أن أقدمك لمدير البنك وهو محام سويسرى يمكنك أن تتفاهم معه وتستمع لرأيه، وفعلاً التقيت بالرجل فى مكتبه وتحدثت معه فأبدى بعض الملاحظات من ناحية الصياغة، لكنه قال: إن ما يتعلق بدور البنك فى هذا الموضوع أمر تختص به إدارة البنك العربى فى مقره الرئيسى، ولما عدت لشومان قال لى: إنه شخصيًا لم يعد رئيس مجلس الإدارة، وإنما يتولى هذا المنصب ابنه الأكبر، ووعد بأن يقدمنى له أثناء زيارة قادمة سوف يقوم بها للرياض حدد لى موعدها ودعانى للاتصال به فى الفندق الذى سينزل فيه.

وفى نهاية اللقاء قال لى شومان: إننى أريد دعوتك للغداء معى؛ ولكننى كما تعرف نباتى، وهنا مطعم نباتى فى المدينة أتردد عليه، فإذا لم يكن لديك اعتراض لنذهب معًا، وسرنا على أقدامنا مشوارًا طويلاً كالعادة حتى وصلنا للمطعم الذى يفضله، وتغدينا، وخلال هذه الفترة سمعت منه قصة شرائه لهذا البنك الذى كان يملكه بعض المؤسسات المالية فى أمريكا الجنوبية، وأنه سارع لشرائه ليقوم من خلاله بالعمليات الخاصة بالبنك العربى فى أوروبا؛ ولذلك فإنه يتعامل بالفائدة ولم يفكر قط فى الخروج على هذا المبدأ، كما أنه لا يتوقع أن يجترئ أحد من البنوك القائمة فعلاً على الخروج عنه؛ لأن القوانين المصرفية والمدنية والتجارية فى جميع أنحاء العالم تفرض التعامل بالفائدة، ونحن عندما أنشأنا البنك العربى كان هدفنا أن ندخل في الأوساط المصرفية والمالية، لا أن نخرج منها أو نخرج عليها.

قلت له: معنى ذلك أنك لا ترى أن يكون للبنك العربى دور فى إنشاء هذه المؤسسة التى لا تتعامل بالفائدة إذا احتجنا إلى بنك قائم فعلاً فى القيام بإجراءات التأسيس فى إحدى البلاد التى نختارها.

قال: إنه شخصيًا لا يميل إلى أن يكون للبنك العربى أى طابع يخرج عن نطاق العمل المصرفى العالمى حاليًا، لكن الأمر على كل حال من شأن مجلس إدارة البنك العربى والقائمين عليه، أما هو فليس له الحق فى اتخاذ قرار فى هذا الصدد، وعلىّ أن أقنع رئيس مجلس الإدارة فى لقائنا القادم معه فى الرياض، ولاشك أنه سيعرض الأمر على مستشاريه وعلى مجلس الإدارة..».

«ولما عدت إلى الرياض التقيت ثانية مع السيد/ عبد الحميد شومان، وكان يسكن فى فيلا تابعة لفندق قصر صحارى الذى كنت أنزل فيه فعلاً، وعرفنى بابنه الأكبر رئيس مجلس إدارة البنك العربى.

وشرحت له الفكرة وأعطيت له المسودة، وطلب موعدًا لكى يتخذ قراره بعد الرجوع إلى مستشاريه وزملائه. وقبل أن يغادر شومان التقيت به مرة ثانية، والتقيت مع ابنه الذى رد إلىّ أوراقى آسفًا ومعتذرًا؛ لأن زملاءه لا يرون من المناسب أن يغامر البنك فى هذا المجال.

قلت لعبد الحميد شومان وأنا أودعه: لقد كنت عاتبًا على طلعت حرب لأنه لم يستطع أن يرتبط معك فى إنشاء بنك خارج مصر بسبب معارضة مجلس الإدارة، وأظن أننا أصبحنا «خالصين» واحدة بواحدة، فإن موقفكم لا يختلف كثيرًا عن موقف طلعت حرب، والفارق الوحيد هو أن مستشاريه

وأعضاء مـجلس إدارته الذين حالوا دون موافقة البنـك على المشروع كانوا من اليهود أما أعـضاء مجلس إدارتك ومستشاريك الـذين حالوا دون الموافقة على هذا المشروع فإنهم لم يكونوا يهودًا، بل كانوا عربًا ومسلمين فيما أعتقد!!

وكان معى أحد أصـدقائى، فبعد أن ودعنا السيد شـومان وأصحابه ونحن فى طريقنا إلى الفندق قال لى: إنك نسـيت شيئًا وهو أن أغلبـية مجلس إدارة بنك مصر الذين رفضوا مـشروع البنك المصرى العربى لم يكونوا يهودًا، وإنما كانوا عربًا ومسلمين ولكنهم كانوا متأثرين برأى الأقلية اليهودية سواء كان ذلك عن خوف أو طمع، وكانوا يخـشون اليهود المسيـطرين على سوق المال خارج البنك وليس فـقط الأقلية اليهـودية فى مجلس إدارة البنك الـعربى؛ لأنهم لا يخشون اليـهود وإنما يخشون المسـيطرين على الدوائر المصرفية والماليـة العالمية الذين لا يقبلون بسهولة وجود مشـروع يخرج عن دائرة التعامل المالى بالفائدة التى هى أساس التعامل المالى والمصرفى فى العالم كله»[(١)].

هذه هى قـصـة «البنك العـربى» وقد أغنانـا الله عنه بعشـرات المصـارف والمؤسسات المالية التى تقوم على أساس إسلامى وتنبذ الربا، ولله الحمد.

وقـد أطلت فى هذا الركن الأول -حسن الصـلة بالله تعالى- لكن كـانت هذه الإطالة مهمة فـى تعميق هذا الأمر فى النفوس، وتثبيـته فى عقل وقلب كل من يطمح بعمل عظيم ينتج أثرًا رائعًا جليلاً باقيًا.

أما الأركان الثلاثة الأخرى ففقد واحد منها مضعِف لاشك لكنه ليس بشرط فى أصل العمل النافع والأثر الجيد لكنه شرط فى كمال هذا الأثر وعظمه.

---

(١) «اقتصاد المستقبل»: ١٢٠ - ١٢٤.

* فمَن افتقد بعض الصفات النفسية الجيدة أو ضعفت عنده ضعف عمله وأثره بمقدار ما فقد منها أو ضعف محصوله منها.

* ومَن ضعف هدفه أو كان محدودًا ضعف أثر عمله ولاشك، فمن كان هدفه هداية أهل حى ليس كَمَن هدفه هداية كثير من أهل المدينة أو الدولة، ومَن كان هدفه الوقوف فى وجه الكافرين وصد كيدهم ومكرهم ليس كمن هدفه إسكات عدو محلى أو شانئ فى حيه أو بلده، ومن كان هدفه بناء مسجد ليس كمن هدفه بناء ألف، وهكذا فإن الهدف كلما عظم زاد الجهد والعمل الموصل إليه، وربما وضع الشخص لنفسه هدفًا عظيمًا فتحقق منه نصفه أو ربعه لكن هذا النصف أو الربع أمر عظيم.

* ومَن قلّ علمه أو ضعفت ثقافته وتوافر له قدر جيد من الصفات والأحوال المتضمنة فى الأركان الثلاثة الأخرى ربما حصل له من الأثر لعمله ما يعوض فقده لهذا الشىء أو عدم جودته عنده.

ولقد رأينا أشخاصًا حققوا بحسن نيتهم، وعظم صلتهم بالله تعالى -وهذا هو الركن الأول من الأركان التى ذكرتها- وعظيم إحساسهم بحال الأمة شيئًا كبيرًا غطى على فقدهم عددًا من الصفات والخصائص التى تضمنتها الأركان الأخرى.

لكن يبقى لكل من أراد أن يكون إمامًا، وأن يكون أثره عظيمًا نافعًا باقيًا فى الأجيال أن يتوافر له حد أدنى معقول من هذه الأركان الأربعة المذكورة، ثم إن الناس يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا بعد ذلك بمقدار ما تتفاوت هذه الأركان الأربعة فيهم.

ولتوضيح ذلك فإني سأضرب مثلاً على تفاوت الأثر المتروك بتفاوت الخصائص والصفات المتضمنة في الأركان الأربعة السابقة الذكر، وسأسوق جملة من فقهاء مذهب ما وليكن المذهب الشافعي مثلاً، وانظروا إلى التفاوت:

- فهناك الإمام الشافعي، وقَلّ في الدنيا مَن لم يسمع به[١].

- وهناك الإمام الغزالي[٢]، وقَلّ في الدنيا مَن لم يسمع به أيضًا.

- وهناك الإمام النووي[٣]، وقَلّ في الدنيا مَن لم يسمع به أيضًا، وإن كانت شهرة الإمامين الغزالي والنووي أقل وأثرهما في المذهب أقل أيضًا، وهؤلاء الأئمة الثلاثة يمثلون طبقة أولى في المذهب الشافعي في الشهرة والتأثير.

- وهناك طبقة أخرى أقل في شهرتها وتأثيرها، فمنها تقي الدين السبكي[٤].

---

(١) محمد بن إدريس الإمام، توفي سنة ٢٠٤ بمصر رحمه الله تعالى. انظر سيرته مفصلة في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٥ وما بعدها.

(٢) محمد بن محمد الغزالي، توفي بطوس -إيران اليوم- سنة ٥٠٥ رحمه الله تعالى. انظر سيرته مفصلة في سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٣٢٢ وما بعدها.

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) علي بن عبد الكافي السبكي، أصله من مصر وسكن الشام، وتولى قضاءها. توفي بمصر سنة ٧٥٦ رحمه الله تعالى. انظر سيرته مفصلة في «الدرر الكامنة»: ٣/ ١٣٤- ١٤٢.

- وهناك طبقة أقل فى شهـرتها وأثرها، منها: ابن سُرَيْج[1]، وإن وصف بالتجديد، والرملى[2].

- وهناك طبقات بين هذه الطبقات أسماؤها لا تحصى ولا تعد.

وعندما أقـسم هذه الطبقات فإنى أقـسمهـا على أساس الشهرة والتـأثير لا المُكنة العلمية حتى لا يعترض معترض ويدقق مدقق.

وأنا موقن -والعلم عنـد الله تعالى- أن اختـلاف هؤلاء عائد إلى نقص أو كمال فى الأركان الأربعة المذكورة.

ومَن اطلع على ترجـمة الإمام النووى على سـبيل المثـال، يدرك ما أريد، ويعلم ما أرمى إليه من كـلامى، فقد كانت صلته بالله تعالى عـجيبة من ورع ظاهر ذكـر الناس فيـه بورع السلف، وزهد تام فى الدنيـا، وإقبـال على الله تعالى، ونسيان حظ النفس.

- وكانت عنده صفات شخصية عجيـبة من همة عالية جدًا لا أعلم له فيها نظيـرًا، ومن قـوة وصدع بالحـق، وأمر بالمعـروف ونهى عن المنكـر، وصبـر عجيب.

- وكان علمه واسعًا، ومعرفته بحال عصره وأشخاصه ووقائعه مناسبة.

---

(١) هو أحمد بن عمر، أبو العباس البغدادى، الإمام المشهور المتوفى سنة ٣٠٦، وقيل عنه إنه مجدد المائة الثالثة، انظر ترجمته فى سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٢٠١ وما بعدها.

(٢) شمس الدين مـحمد بن أحـمد بن حمـزة الرملى المتوفى المصرى الأنصارى الشـهير بالشـافعى الصغـير، المتوفى سنة ١٠٠٤، وقـد ذهب جماعة من العلمـاء أنه مجدد المائة العـاشرة. انظر ترجمته فى «خلاصة الأثر»: ٣/ ٣٤٢- ٣٤٨.

- وكان هدفه عظيمًا منقسمًا بين التأليف النافع جدًا الذى يندر فى التصانيف مثله قوة وشمولاً ونفعًا وتأثيرًا، وبين رعاية مصالح الناس وتفقد شؤونهم، وبين تهذيب النفس والوصول بها إلى درجة قريبة من الكمال.

فلا جرم إذًا أن كان النووى إحدى الشخصيات العظيمة المؤثرة فى التاريخ وله آثار نافعة لازالت باقية إلى اليوم، ولن تزول إلا إذا زالت الدنيا، إن شاء الله تعالى.

ولا جرم أن كان الإمام النووى هو إحدى الشخصيات القليلة على مدار التاريخ الإسلامى التى اجتمعت كلمة الناس فى الثناء عليها، والرضا بحالها، من الموافقين لمذهبه، ومن المخالفين له فيه، ومن السالكين نهجه، ومن السالكين طرائق أخرى، لا أعلم أن أحدًا من الناس طعن عليه طعنًا مؤثرًا باقيًا، وهذا من أعجب العجب.

والناظر لكتبه يعلم هذا؛ إذ ليس هو بالفقيه الشافعى الأول، فهناك من هو أفقه منه لكن كتبه الفقهية ظلت مراجع على مدار الزمان.

- وليس هو فى الطبقة الأولى من المحدثين لكن كتبه الحديثية بقيت فى الأرض، وما شرحه لصحيح مسلم منا ببعيد، وغير ذلك من الكتب التى يعرفها المتخصصون كأصل تدريب الراوى وغيره، لكن أعجب كتاب له على الإطلاق «الأربعون النووية» التى حفظها الملايين، بل أقول مطمئنًا: حفظها مئات الملايين من عصر المصنف إلى الآن، وهذا شىء قل أن يتكرر فى الدنيا لأحد.

- وليس هو من المشهورين بالوعظ، لكن كتابَيه «رياض الصالحين» و«الأذكار» هما أخلد الكتب فى هذا الباب وأعجبها، سواء فى أصل الوضع أو الشهرة والتأثير والانتشار الواسع جدًا.

- وله كتب أخرى ذائعة الصيت منتشرة بين العوام والخواص منها: «التبيان فى آداب حملة القرآن»، و«بستان العارفين». . . إلخ.

- إذا: هذا المثال يبين بوضوح ما أريده من أن عظم تأصل الأركان الأربعة فى نفس شخص يعود على عمله بأعظم العوائد، ويترك له أثرًا فى الأرض لا يتخيله أحد.



المبحث السادس:

العوائق التى تقف حوائل دون تحقيق الأثر المطلوب

هناك عوائق عـديدة تقف حوائل دون الوصول إلـى أن يحقق المرء أثرًا فى دنيـاه، لكن الذكى البـطل الموفَّق هو الذى يتـجـاوز تلك العـوائق، ويقـفـز الحواجز، ويدور حول العقبات حتى لا يستسلم وقد كان له سبيل يسلكها.

وهى جملة من العوائق تتلخص فى الآتى:

١- عقبة المجتمع:

ذلك أن مجتـمعاتنا العربيـة الإسلامية فيـها عدة عيـوب قد تصرف طالب العمل العظيم عن وجهـته، وتذهب به بعيدًا عن هدفه، وقـد تحبطه وتؤيسه، وقد تؤذيه، وتقعده، فمن تلك العقبات:

* الترف المُقْعِد فى عدد من الدول العربية والإسلامية الذى يصيب المجتمع بالترهل والضـعف والتراخى، فـيصبح البـاحث عن المعالى فى هذا المجـتمع كباحث عن إبرة فقدها وسط كومة من القش.

* ضـيق سُبل العـيش على كـثيـر من الناس -فى أكـثـر الدول العربيـة والإسلامـية- بسبب الفقـر المدقع أو بسبب سوء الحـالة الأمنية وضعفـها، إذ يكون أكثر الناس آنئذ مشغولين بتحصيل عيشهم أو نيل أمنهم.

* الفساد الإدارى أو مـا يسمونه «الروتين» أو «البيروقـراطية» وهو من أشد العوائق صـعوبة أمـام طالبى الأعمال العظيـمة؛ إذ توضع أمـامهم العقـبات والحواجز التي لا تكاد تنتهى.

* قلة الوعى عند جماهير الناس مما يقف حائلاً دون تفهمهم الفوائد الجليلة للأعمال العظيمة بل قد يقفون حائلاً دون تحقيقها.

* المشكلات الداخلية التى تحيط بالمرء من زوج مـزعجة، أو أولاد عاقين، أو أهل متعبين، إلخ...

* وجود عدد ممن يسوؤهم العمل الصالح النافع من اللادينيين، والمتحررين من الشريعة، والفـاسدين، وهؤلاء قد يكونون من صفوة المجـتمع الذى بيده مقاليـد الأمور، وهنا تكون المصيبة الواقـعة على مريد الأعمال العظيـمة أشد وأنكى.

* الحسد والغيرة اللذان يواجههما طالب الأعمال العظيمة من أقرانه، وربما يصل الأمر إلى الإيذاء.

٢- العقبات الشخصية:

وقد يكون فى طالب العمل العظـيم عقبات فى شخصـه تمنعه من الوصول لمراده من جبن، أو خور، أو ضعف فى البنيـة أو التصور والإدراك، أو أنه لم يؤتَ حظًا كبيرًا من الذكاء والفهم، أو أنه كثير التردد، ضعيف العزم، أو يؤثر السلامة ويطلب العافية، أو غير ذلك من الصفات والخصائص المقعدة.

وقد تحدثت عن أضدادها فى المبحث الثانى لكنى سأورد جملة من الصفات الشخصية المقعدة للمرء عن بلوغ المعالى، ولابد له من معالجتها إن أراد إحداث التغيير المنشود[1]:

أ- التواضع الكاذب:

وأعنى به ذلك الانكسار الدائم فى شخصية المرء، فتجده يعتذر دائمًا بأنه ضعيف لا يستطيع تحمُّل المسئولية، أو هو أقل مما يؤمل منه، أو أن الآخرين خُدعوا به حيث ظنوا فيه خيرًا[2]، أوَ لم يعلم أن قليله كثير عند الآخرين، وما يظنه من نفسه إنما هو بخلاف ما وهبه الله من قدرات مكنونة فى نفسه ينتظرها ويرجو خيرها سائر المسلمين؟

والعجيب أن مثل هذا المنكفئ المنكسر يرى من هو أقل منه علمًا وفقهًا يتصدر ويُسمع قوله وهو ما زال مترددًا متعللاً متوانيًا.

والخطر فى هذا الخلق الذميم أن صاحبه قد يعتاد استعظام الأمور حتى إن كانت يسيرة، فينتهى به الأمر إلى القعود والعجز الكلى، والعياذ بالله.

ومن كانت هذه حاله فإنه لا يرجى له أن يتجاوز عثار عجزه هذا إلا أن يعزم عزمًا أكيدًا على تجاوز هذا الخلق الذميم الذى ينافى الإقدام والجرأة والاستجابة للمعالى وغير ذلك من الصفات المطلوبة فى المرء المسلم.

---

(١) نقلت هذه الصفات السلبية من كتابى «عجز الثقات» لأهمية إيرادها فى هذا السياق ومناسبتها له وأضفت عليها إضافات كثيرة.

(٢) كنت قد أشرت فى كتاب «التنازع والتوازن فى حياة المسلم» إلى مسألة التصدر قبل أوان التأهل وناقشتها، فيجمع بينها وبين ما هنا.

قال الشاعر:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له　　　فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

ب- التحسس ورهف المشاعر:

إن الشخصية اللطيفة الحس، المستقيمة فى تصوراتها وعواطفها لهى الشخصية المطلوبة الجيدة حقًا، أما إن طغت عليها عواطفها، وأصبحت فى غاية التحسس والرقة فإن فى ذلك فسادَها وذهاب قوتها وتميزها، ولا يعود يستطاع التبسط فى الحديث مع من شأنه كذلك، إذ هو يحمل الكلام على محاملَ كثيرة، ويُؤوّل تأويلات لا يحتملها الكلام بل لم تخطر على بال المتكلم أصلاً، ويصير ذلك الشخص متأثرًا بالأحداث حوله إلى الغاية التى تنفر أقرب الناس إليه من حاله وصفته.

وهذا كله مدخل كبير إلى عجز ذلك المتحسس عجزًا كبيرًا، لأنه لا يستطيع الخلطة مع الناس على وجه مرضى، ولا الناس يرغبون فى لقائه والمكث معه وهو كذلك، فينتهى به الأمر إلى العزلة والانقطاع، ومن ثم العجز التام عن المشاركة فى الإصلاح والدعوة إليه.

ولقد عرفت رجالاً كان هذا شأنهم الذى سطرته آنفًا، وهم يعيشون الآن على هامش الحياة بسبب غلبة عواطفهم عليهم، وعدم استطاعتهم التحكم فيها والاستفادة منها، ولوقوفهم الدائم عند صغائر الأمور التى لا يُلقى أكثر الناس لها بالاً.

وعلاج أولئك عسير عسير، وما لم يوفقهم الله -تعالى- فإنه لا يُرجى لهم البرءُ من مرضهم هذا، حيث إنه قد نشأ لديهم منذ الصغر -غالبًا- واعتادوا

عليه وطُبعوا به فلا انفكاك لهم عنه إلا أن يشاء الله -تعالى- أمرًا آخر، وقد يحتاج صاحب هذا الخلق أن يتردد على طبيب بارع فى معالجة علل النفوس حتى يتخلص من بعض أعراض مرضه هذا، والله الموفق.

جـ- الكسل:

وهو صفة مستحكمة فى كثير من الخلق، تدعوهم إلى القعود عن المعالى والفضائل، والرضا بالدون من كل شيء.

والكَسل أكثر منشئه من الترف والدَّعة، والتبسط إلى الدنيا، والعَبّ من شهواتها وملاذّها، وعدم الالتفات إلى ما يخالف ذلك أو يُنغص عليه.

والكسل مؤدٍّ إلى العجز ولابد، حيث إنه يمنع المرء من الخروج من منزله وحيه لغرض الإصلاح والدعوة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل يمنع المرء من الحركة فى بيته لتربية أولاده ومراقبتهم، ومَن كان حاله كذلك فهو العاجز عجزًا كليًا، نسأل الله السلامة والعافية.

«والكسل آفة النجاح، وهو وباء فتاك يفتك بكل من يصيبه فيجعله عاجزًا عن تحمُّل مسئولياته كإنسان، وفاشلاً فى تكوين مستقبله ككيان مستقل، ومنهزمًا أمام تحديات الحياة. . . ولقد اعتبر الإسلام الكسل صفة ذميمة، فلقد ذم الله عز وجل الكسالى فى كتابه المجيد، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ**﴾ [التوبة: ٥٤]، وقد كان الرسول ﷺ يتعوذ من الكسل. . . فعن أنس رضى الله عنه كان النبى ﷺ يقول:

«اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل»[١].

وقال على رضى الله تعالى عنه:

«التوانى مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهَلَكَة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد».

وقال بعض الحكماء:

الحركة بركة، والتوانى هلكة، والكسل شؤم[٢].

وإياك «وإيثار الخفض والدَعَة، والميل إلى الراحة والسعة، فإن خواتم هذه الخصال مذمومة، وعقباها كريهة وخيمة... ودع الضجر والكسل وحب العاجلة فإنها من أخلاق البهائم...»[٣].

وقد كان شيخ الإسلام زكريا الأنصارى[٤] رحمه الله تعالى «يصلى النوافل من قيام مع كبر سنه، وبلوغه مائة سنة أو أكثر، وهو يميل يمينًا وشمالاً لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكِبَر والمرض، فقيل له فى ذلك، فقال: يا ولدى، النفس من شأنها الكسل، وأخاف أن تغلبنى وأختم عمرى بذلك»[٥].

---

(١) صحيح البخارى: كتاب الدعوات: باب التعوذ من غلبة الرجال.

(٢) «الشخصية الناجحة»: ٦٠-٦٢، وقد نقل المصنف قول على رضى الله عنه من «المستطرف»: ٢/ ١٢٧.

(٣) «البصائر والذخائر»: ٢/ ٧، ٨.

(٤) زكريا بن محمد بن زكريا الأنصارى، أحد علماء القرن العاشر، وممن رزق حظًا عظيمًا فى التصنيف وكثرة الطلبة، تولى القضاء فى مصر، ومات فيها سنة ٩٢٦ بعد أن عمر زيادة عن مائة سنة. انظر أخباره فى «الكواكب السائرة»: ١/ ١٩٦- ٢٠٧.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٢٠٢.

وينبغى أن يعالج الكسل لئلا يؤدى إلى الفتور «وهو داء يصيب العاملين يؤدى فى أسوأ أحواله إلى الانقطاع بعد الاستمرار، وفى أحسن أحواله يظهر السكون والكسل والتراخى والتباطؤ بعد الحركة، وورود الفتور أمر عارض يجب ألا يُسلم له... فالداعية إن كانت له فترة فلتكن استراحة مقاتل يعود بعدها إلى العطاء والجهاد، قال النبى ﷺ فى حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما:

«لكل عمل شِرّة[1]، ولكل شِرّة فَتْرة[2]، فمن كانت فترته إلى سنّتى فقد أفلح، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك»[3].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لابد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد ولم تُخرجه من فرض، ولم تُدخله فى محرم رُجى له أن يعود خيرًا مما كان مع أن العبادة المحببة إلى الله سبحانه هى مادام العبد عليها»[4].

د- السآمة والملل:

إن الله تبارك وتعالى وضع سننًا تسيِّر هذا الكون وتحكمه، وهى سنن حكيمة لها حد تنتهى إليه بعلم الله، تبارك وتعالى، فمن هذه السنن أن

---

(١) النشاط والرغبة، وشرة الشباب أوله ونشاطه، وانظر «الترغيب والترهيب»: ١/ ٨٧.

(٢) الفترة: الانقطاع.

(٣) قال الإمام المنذرى: رواه ابن أبى عاصم وابن حبان فى صحيحه، انظر «الترغيب والترهيب»: ١/ ٨٧، وقد صحح الحديث الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله تعالى، كما فى «العوائق»: ٩.

(٤) «الفتور»: ١٥، ١٦. ونسب المصنف كلام ابن القيم إلى «مدارج السالكين»: ٣/ ١٢٦.

الفساد الناجم عن طول معاشرة الناس للمنكرات واستمرائهم لها لا يزول إلا بإصلاح تدريجى قد يطول فيستغرق أجيالاً، أو يقصر ليتحقق فى الجيل نفسه لكن بعد سنوات طويلة، والناظر فى التاريخ الإسلامى بل تاريخ النبوات والمصلحين منذ آدم -عليه السلام- يرى ذلك واضحًا جليًا لا يحتاج إلى برهان.

والمتصدُّون لهذا الإصلاح لابد أن يوقنوا بذلك، ويوطنوا أنفسهم على بذل الأوقات على مدى أزمان طويلة متتالية -قد تبلغ ثلاثين أو أربعين سنة أو أكثر- حتى يستقيم لهم طائفة معتبرة من الناس على منهج الله تبارك وتعالى.

فإن جاء أناس تعجلوا وظنوا أنهم قد يختصرون زمان الإصلاح إلى سنوات قليلة معدودة فهؤلاء لم يفقهوا تلك السُّنة، ولم يفهموها حق الفهم، وعملهم هذا مبتدع، حيث لا سابق لهم فى ظنهم هذا، ولا يستطيعون الإتيان بدليل على ما ذهبوا إليه.

ثم إن وضح لتلك الطائفة خطأ ما ذهبوا إليه وتعجلوه ارتد أكثرهم على أعقابهم يائسين من الإصلاح، راغبين عنه، زاهدين فيه، قد علتهم السآمة والملل، واعتراهم الكلال والضعف، فيصبحون عاجزين مثبطين، مُحبَطين مُحبِطين.

وهذا خلاف منهج الأنبياء العظام الذين بذلوا جهوداً كبيرة لمدة طويلة بلا يأس ولا ملل، وأوضح مثال على هذا هو نبى الله نوح عليه السلام، فقد

واصل «جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهـداية قومه بلا مصلحة له ولا منفعة، ويحتمل فى سبـيل هذه الغاية ما يحتمل من إعراض واستكبـار واستهزاء ألف سنة إلا خمـسين عامًا، وعدد المسـتجيبين له لا يكاد يزيد، ودرجـة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد... ولا يمل، ولا يفـتر، ولا ييأس أمام الإعراض والإصـرار... حاول أن يسلك إلى آذان قـومه وقلوبهم وعـقولهم بشتى الأساليب ومتنوع الوسائل فى دأب طويل، وفى صبر جميل، وفى جهد نبيل ألف سنة إلا خمسين عامًا...»[١].

وقد تكون السآمة -المؤدية للعجز- ناشئـة عن نفس ملولة سَئِمة متقلبة، لا تستقر على أمر، ولا ترضى بالثبات على حال واحدة مُرضية زمانًا طويلاً، أو تكون ناشئة عن مزاجية فى العمل فـما رغب فيه عمله، وما رغب عنه تركه، أو تكون ناشئة عن إحباط، فقد يعمل الشخص طلبًا لمنصب أو تحقيقًا لغرض، فإن لم يدركه أصابته السآمة وترك العمل.

هـ- الانقباض وضيق العَطن[٢]:

نفوس المصلحين لابد أن تكون رحبة، بعيدة عن العسر، قريبة من الناس، تُؤثر الخلطة المفيدة، وتُشعر الناس جميعًا أنهم قريبون منها على الدوام، أما إن كان الثقات عـسرين، منقبضين، ضيـقى العطن، راغبين عن الناس، مؤثرين العزلة غير المفيدة ولا المنضبطة بضـوابط الشرع المطهر فإنهم سيكونون عاجزين كل العجز عن إصلاح المجتمع والتأثيـر الإيجابى فيه، ولن يُحتاج إلى أحدهم

(١) «فى ظلال القرآن»: ٦/ ٣٧١٢- ٣٧١٥ بتصرف.

(٢) ضيق العطن: قلة الصبر، وقلة الحيلة عند الشدائد.

إلا اضطرارًا وبقدر، وعدا عن ذلك فإنهم سيكونون منعزلين ما لم تشتد حاجة الناس إليهم، كحاجة السابقين إلى الأعمش[1] رحمه الله تعالى.

قال النبى ﷺ:

«المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[2].

وهذا الانقباض عن الناس يحيل المرء إلى أن يكون عاجزًا لا يستطيع إصلاحًا ولا يقدر عليه، بل لا يرغب فيه.

ولله در الشافعى حيث يقول لتلميذه:

«الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط»[3].

و- اليأس:

اليأس نقيض الحياة، وهو الموت المبكر، وذلك لأن اليائس قد أظلمت الدنيا فى وجهه قبل ظلمة القبور، ومات الأمل فى نفسه وذهنه وقلبه قبل موت أعضائه، فهو فى الدنيا حسًا لكنه معدود فى عالم الأموات الذى يشمل أصنافًا

---

(١) سليمان بن مهران، أحد أئمة الحفاظ، وكان من العسرين فى الرواية، الذين يضيقون بالناس ويؤثرون اعتزالهم، وله فى ذلك حكايات عجيبة. انظر سيرته فى «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٢٢٦ وما بعدها.

(٢) قال الحافظ الهيثمى رحمه الله تعالى: «رواه أحمد والطبرانى وإسناده جيد». انظر مجمع الزوائد»: ١٠/ ٢٧٧.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٤١.

كثيرة منها من خرجت روحه وفارق الدنيا، ومنها اليائس، ومنها الكافر، ومنها الضال عن منهج الله، إذ حياة أولئك أشبه بموتهم، والعياذ بالله تعالى.

واليائس عاجز عاجز، لا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلاً، لأنه مسجون أو مقهور بل لأنه قد سجن نفسه بتصوره أنه لا فائدة من الإصلاح ولا رجاء فى الخلق، ولا خير عند الناس.

والأنبياء -عليهم السلام- لم ييأسوا، بل دعوا إلى الله تعالى بعزم وجد سنوات طويلة، وبعضهم دعا قرونًا كنوح عليه السلام، وقد كانت حصيلة الدعوة ضئيلة فى بعض الأحيان كما أخبرنا النبى ﷺ: «**يأتى النبى ومعه الرجل، والنبى ومعه الرجلان، والنبى ليس معه أحد**»(1).

وقد أخبر الله تعالى عن نوح بعد أن دعا ألف سنة تقريبًا أنه ﴿**وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ [هود: ٤٠].

و«من المؤثرات النفسية التى يواجهها الدعاة ويستشعرون بها، ويجدون الكثير ممن يُحسبون على الإسلام يتشدقون بها ويرفعون لواءها المؤثر التيئيسى الانعزالى الذى يُقعدهم عن مسئولية الدعوة، ويثبطهم عن فرضية الجهاد، ويدفعهم إلى عزلة المجتمع والركون إلى الاسترخاء والانطوائية... وهذه الظاهرة من التيئيس والتثبيط إذا استفحلت فى أمة وترسخت فى نفسية الدعاة فإنها -فى الحقيقة- القاصمة التى تقصم مسيرة العمل الإسلامى، والحالقة التى تحلق التفاؤل بالنصر، فلم يبق لإقامة العزة الإسلامية فى النفوس رجاء، ولم يعد لاستعادة الأمجاد التاريخية أمل»(2).

---

(1) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه.

(2) «عقبات فى طريق الدعاة»: ٢٢٢.

وإليكم أيها القراء الكرام أمثلة على أناس نفوا من حياتهم اليأس تمامًا، وقد أوردتها كلها من حياة كفار نصارى أو ملحدين، لأقول: إن كان هذا حالهم فكيف ينبغى أن يكون حالنا نحن المسلمين!! وأول الأمثلة قادة الاتحاد السوفيتى الهالك الذى دمره الله تعالى وجعله عبرة للمعتبرين: كيف صنعوا، وماذا قدموا؟ وأبدأ بمؤسس دولتهم وأول حكامهم: لينين، فقد نُفى إلى سيبريا سنة ١٨٩٧ وعمره ٢٧ سنة، وقبل ذلك شهد محاكمة أخيه الذى حكم عليه بالإعدام شنقًا لمحاولته قتل القيصر، ثم تنقل فى أوروبا سنوات فى إصرار عجيب ليحقق الذى يدعو إليه من الشيوعية الملحدة، ثم عاد إلى روسيا، وصدر أمر بإلقاء القبض عليه بتهمة العمالة للألمان فهرب إلى فنلندا حيث كتب أهم كتاب له، ثم عاد بعد شهور ليتولى قيادة الاتحاد السوفيتى الناشىء ثم تعرض لمحاولة اغتيال فتأثر بها ليموت بعد سنوات قليلة. وزميله تروتسكى هو مُنظِّر الثورة على القيصر، وهو كذلك قد تعرض لمحن عديدة لكنه لم ييأس، فقد اعتقل سنتين وعمره ثمانية عشر عامًا، ثم نفى إلى سيبريا لمدة ٤ سنوات بدون محاكمة، فهرب من سيبريا بعد سنتين، وتنقل فى أوروبا، ثم عاد إلى روسيا لينفى مرة أخرى إلى سيبريا ثم هرب منها أيضًا إلى أوروبا الغربية، ثم طرد من فرنسا فلجأ إلى أمريكا ثم عاد إلى روسيا حيث سجن، ثم قام الاتحاد السوفيتى فتولى فيه مناصب، ثم بعد وفاة لينين تعرض لعدة محن فى عهد ستالين، وهرب إلى أوروبا ومنها إلى المكسيك ليقتل هنالك سنة ١٩٤٠.

أرأيتم معشر القراء هذا العمل المتصل وعدم اليأس إلى أن قامت دولتهم البائدة، وحضارتهم الزائفة، وإلحادهم المقبور، وكفرهم

المشهور[1]، وعملهم هذا يصح أن يضرب -فى أصله- مثلاً للمتخاذلين منا، القاعدين، الذين قنعوا من الصلاح بشعائر التعبد وتركوا شرائع التقرب بالعمل المتواصل والجد والاجتهاد.

وهذه الأمريكية هيلين كيلر التى ولدت عام ١٨٨٠، تعرضت وعمرها ثمانية عشر شهرًا فقط لمرض أفقدها النظر والسمع والنطق!! فأخذت تستخدم الإشارات للتفاهم مع من حولها. ثم عينت لها أسرتها مدرسة خاصة قامت على تعليمها القراءة بطريقة «بريل».

ثم هل تعلمون كيف تعلمت؟ كانت تفهم الأصوات وتميزها عن طريق لمس حنجرة المدرسة وتحسس الذبذبات الصوتية بطريقة اللمس، ثم التحقت بكلية مكثت فيها أربع سنوات حيث كانت مدرستها تترجم لها المحاضرات بطريقة لمس باطن كفها!! ثم تخرجت فى الكلية ووهبت باقى عمرها لمساعدة المعاقين، ثم أصبحت أديبة مؤلفة، لها عدة كتب، فسبحان الله كيف تغلبت على عجزها التام بإصرار عجيب، وعن طريق لمس الجدران والحناجر استطاعت أن تميز الأشياء والأصوات، بل الأعجب أنها صارت أديبة مؤلفة[2].

وهذا الكولونيلساندرز وصل عمره إلى الخامسة والستين، وكان فقيرًا معدمًا، لكنه بدأ فى هذا العمر بإنشاء مطعم ارتقى ليكون سلسلة مطاعم «كنتكى» المشهورة، وسافر فى سبيل تثبيت مطاعمه فى ٩٢ دولة قرابة ثلاثين

---

(١) من موقع للإنترنت.

(٢) «عظماء ومشاهير معاقون»: ٢٥٢- ٢٥٦ بتصرف.

عامًا ليتابع بنفسه امبراطورية الدجاج التى أنشأها بمثابرة عجيبة ولم يعرف اليأس قط(1).

وهذا اليابانى سيكيرو هوندا صاحب مصانع هوندا المشهورة، قد ولد فى عائلة فقيرة جدًا، وكان أبوه حدادًا يصلح الدراجات الهوائية على الطريق، فتعلم من والده وتعلق بالدراجات ثم ارتقى وجد واجتهد ليكون بعد ذلك صاحب مصانع هوندا الشهيرة وسجل باسمه أكثر من ٤٧٠ ابتكارًا وأكثر من ١٥٠ براءة اختراع، وكان قد ابتدأ بدخول عالم التصنيع بإنشائه مصنعًا صغيرًا لكن الحرب العالمية الثانية دمرت هذا المصنع، وأصبح معدمًا تمامًا كما بدأ، لكنه لم ييأس، وهداه تفكيره إلى إنشاء الدراجات النارية ثم ارتقى مرة أخرى فى عالم الصناعة، وله مقولة مهمة تدل على عزمه وتصميمه وعدم يأسه واستفادته من فشله وإخفاقه:

«عندما أنظر إلى الوراء أحس بأننى لم أحصد سوى أخطاء سلسلة من الأعمال الفاشلة والكثير من الندم!! غير أننى فى المقابل فخور بما حققته، وعلى الرغم من أننى قمت بالكثير من الأخطاء واحدًا تلو الآخر لكن ليس هناك خطأ أو فشل تكرر مرتين، لذلك أؤكد لكم أن النجاح يمثل ١٪ من عملنا الذى ينتج عن ٩٩٪ من فشلنا»، وله أخبار كثيرة وأعمال عجيبة دالة على عزمه وتصميمه وعدم يأسه(2).

أرأيتم معشر القراء كيف نفى أولئك الأشخاص اليأس من حياتهم فحصلوا على نتائج ضخمة، ونحن المسلمين -وخاصة الدعاة والعاملين- أولى منهم

---

(1) «حكايات كفاح»: ٢٠٤ - ٢١٤.

(2) المصدر السابق: ٢٢٢ - ٢٣١ بتصرف.

بهذه المثابرة وانعدام اليأس، ودينا العظيم يأمرنا بنفى اليأس واستقبال الحياة بالعمل والجد والمثابرة والاجتهاد.

ومن العجائب التى تستحق الاعتبار فى مثال لينين وتروتسكى وأضرابهما أنهم أقدموا على الموت وهم لا يعتقدون موتًا ولا نشورًا، ولا يؤمنون بخالق أصلاً، وهذا عندى من أعجب العجب فلنعتبر به ولنتعظ ولنعمل أكثر مما عمل أولئك، فنحن نعتقد بالبعث والجزاء.

ز- الخوف:

وهو داء قتّال، إن أصيب به المرء ضعف ضعفًا عظيمًا، وخارت قواه، ووهت عزيمته؛ إذ من شروط طالبى ترك الأثر فى دنيا الناس أن يكونوا متوكلين على الله تبارك وتعالى فى شؤونهم كلها، والخائف ليس متوكلا، إذ هو يخاف من مجهول المستقبل على نفسه، أو ماله أو عياله، أو وظيفته، فيصبح فى هاجس دائم وخوف مستمر قد يملك عليه أرجاء نفسه فينسحب من جنة الدنيا إلى صحرائها، ومن نعيم التوكل إلى جحيم القلق، فينتهى به الحال إلى عجز مطلق مستمر، وذل دائم -والعياذ بالله- لا يزول إلا بزواله ولا ينتهى إلا بنهايته.

إن الناظر إلى تاركى الأثر العظيم فى دنياهم قديمًا وحديثًا ممن نصبوا أنفسهم للإصلاح والتغيير لا يكاد يجد فيهم خائفًا خوفًا مؤديًا به إلى الانقطاع والعجز، إنما قد تعترى أحدهم وساوس ينفيها بقوة توكله وعظيم إيمانه، وكان الله تعالى معه: ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

وهذا الخوف يعظم حال الفتن والمصائب، لكنها «سنة الله القديمة فى تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا أهلاً: أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم، وأن يلقوا فى سبيلها العَنَت والألم والشدة والضر، وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة، حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم لم تزعزعهم شدة ولم ترهبهم قوة، ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة... استحقوا الجنة، لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف، وتحررت من الذل، وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدعة والرخاء، فهى عندئذ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة، وأرفع ما تكون من عالم الطين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]»[1].

حـ- الغموض:

هو هالة تحيط بالمرء فلا يعود يعرف ماذا يريد، ولا ما هى أهدافه، ولا يستطيع المرء معرفة أو تحديد طريقة حياة ذلك الشخص أو كيف يفكر، وقد ينشأ هذا الغموض من ظرف نفسى خالط ذلك الثقة فغمض حاله وجُهل فصار يؤثر العزلة والانقباض مثلاً، أو قد ينشأ هذا الغموض من سبب خارجى عنه كهيئة أو خلقة أو لباس غريب عن مجتمعه، أو كل ذلك جميعًا.

والغموض الملازم للشخص مؤد به إلى العجز ولا ريب، إذ سيتجنبه الناس فلا يخالطونه، ويخافونه ويحذرونه، ولا يوادونه، فيجب على من ابتلى بهاته

---

(١) «طريق الدعوة»: ٣٥١، ٣٥٢.

الصفة أن يسارع إلى التخلص منها قدر المستطاع حتى يعود مشاركًا للناس فى حياتهم على الوجه الذى يكفل دعوتهم وإصلاحهم.

ط- التردد:

وهو من الأسباب الموصلة للعجز، وذلك لأن المتردد قلما يعزم على أمر، وإذا عزم على إبرام أمر فإنه قلما يمضيه، فيظل يراوح مكانه، وتأتيه الفرصة تلو الفرصة وهو عاجز عن اقتناصها، بل هو مشغول عن الجديدة بالتحسر على تردده فى أمر القديمة، وهكذا يظل عمره عاجزًا عن الوصول إلى معالى الأمور.

ولعل التردد ناشىء عن ضعف التوكل على الله -تبارك وتعالى- والغفلة عن صلاة الاستخارة، وعدم استشارة الموثوق بعقلهم ودينهم، والله أعلم.

تلك الأسباب -أسباب العجز التسعة الآنفة الذكر- عوامل خطيرة فتّاكة قاتلة لشخصية المرء، ومدمرة لجهده ومطيحة لآماله، وما لم يتداركه الله تعالى برحمة منه وفضل فإنه يظل قابعًا فى أسْره إلى نهاية حياته، فعلى المرء المصاب بها أو بشىء منها أن يسارع إلى علاجها سرعته إلى علاج الأمراض العضوية الحالة ببدنه، عسى أن يمنّ الله تعالى عليه بالشفاء منها والتخلُّص من آثارها حتى يكون لبنة مفيدة فى بناء أمته، والله الموفق.

٢- العقبات الخارجية:

وهى متمثلة فى كيد الأعداء المتربصين، ومكرهم، وأعينهم المفتوحة على كل عمل نافع للمسلمين منتشل لهم من حفرة التخلف والضعف، والذل والهوان، فكم وأدوا من مشاريع نافعة وأعمال صالحة جليلة، وكم أسقطوا من

مشاريع جهادية، ومـؤسسات إسلامية، وجمعيات خيـرية، وهيئات إغاثية. وهم يقفون اليوم عـقبة كبيرة أمام المسلمين حـتى فى جمع المال لتوزيعه على الأيتام والفقراء وأولاد الشهداء، والعوائل المنكوبة!!

وكيد الكـافرين شىء عجيب، وأمـر غريب، وإحصاءات مـهولة، وأعداد وإعداد، ولست ممن يـحب سَوْق مكرهم، وذكر كـيدهم، وعـرض حربهم، وتفصيل اسـتعداداتهم، لأنى أرى أن هذا مما يفت من عضـد المسلمين، ولأن الله تعالى أمـرنا بإعداد ما نسـتطيع من قوة ولم يشـترط لنصرنا أن نُعـد قوة مكافئة إن لم نـستطع، وهذا رحمة من الله تعالـى ذكرها فى قوله: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: ٦٠] لكن يا رب إن لم نتمكن من مكافأتهم فى قوتهم ماذا نصنع؟! هنا يأتى المدد الإلـهى، والنصرة الربانية، يعنى: يصح أن يقال: إن الباقى إنما هو عليه جل جلاله.

ولكنى سأورد شـيئًا يوضح عظم الكيـد ليحسن الاسـتعداد لا ليـحيط بنا اليأس، ويتملكنا الإحبـاط، ولنفهم ماذا يصنعون حتى نواجه كيـدهم مواجهة شاملة لا مواجهة فردية عاجزة، فإليكم هذه النقاط الموجزة غاية الإيجاز لكنها إن شاء الله معبرة وموقظة:

١- الاستخراب العالمى (الاستعمار كما يطلق عليه زورًا وبهتانًا):

دنّس الغـرب بأقدامـة القذرة بلادنا، فـفى سنة ١٦٤٥ احتل الهـولنديون الملايو، وفى سنة ١٨٠٠ اسـتولى الإنجليز على مسقط والبـحرين، وفى سنة

١٨٠٢ احتلوا عـدن" وسلطنة لحج، وفى سنة ١٨٣٠ احـتلت فرنسـا الجزائر، وفى سنة ١٨٦٩ أخـذوا تونس، وفى سنة ١٨٨٢ احـتل الإنجليـز مـصـر ثم السـودان، وأخذت فـرنسـا المغرب سنة ١٩٠٤، ثم أخـذت إسـبانيـا الريف المغربى، وأخذت إيطـاليا ليبيا سنة ١٩١١، وفى سنة ١٩١٨ أخـذت بريطانيا العراق وفلسطين[١]، وفى سنة ١٩٢٠ دخل الفرنسيون الشام، وهكذا سقطت بلاد المسلمـين الواحدة تلو الأخـرى فى قبـضتـهم، فنشـروا فيهـا الفـساد، وقسموها، وأوجدوا فيها بؤرًا للفتن والتناحر، فما رحلوا عنها إلا وقد ضمنوا استمرار القلاقل فيها والمحن والفتن.

٢- الاستشراق:

وهو الدراسـات التى يقـوم بهـا نفـر من أسـاتذة الغـرب لمناطق الشـرق وخصوصًا المناطق الإسلامية، وكانت كـثير من هذه الدراسات ممهدة لاحتلال بلاد المسلميـن، وتغييـر عقائدهم، فـالاستشـراق كان خادمًـا أمينًا للكنيـسة وللأطمـاع الغربيـة فى بلاد المسلمين، وكـان أغلب المستـشرقـين بعيـدًا عن الموضوعية والنزاهة، شديد الحقد على المسلمين، وكان كيد المستشرقين متمثلاً فى الطعن فى الإسلام وحـضارته وشريعـته ، وإلقاء الشبـهات الكثيـرة عليه وعلى رسوله ﷺ، ومحـاولة طمس اللغة العربية، والطعن الكثـير فى القرآن وحديث النبى عليه الصلاة والسلام، وكتبوا فى كل ذلك كتابات خطيرة تتلمذ عليهـا نفر من بنى جلدتنا وممن تبوؤوا المناصب الخطيـرة فى بلاد الإسلام[٢]، ولا زال الاستشراق يعمل عمله فى ديار الإسلام.

---

(١) انظر «التراجع الحضارى»: ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) انظر للتوسع -مثالاً- كتاب «التبشير والاستشراق فى ميزان الإسلام» للدكتور عمر قريشى.

٣- التبشير (ومن حقه أن يُسمى التنفير أو التكفير):

يكفى فيه قول اللورد بلفور (وزير خارجية بريطانيا):

«إن المبشرين هم ساعِدُ جميع الحكومات المستعمرة وعضدها فى كثير من الأمور المهمة»[(١)].

وقول الدكتور محمد البهى[(٢)] رحمه الله تعالى:

«إن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار (الاستخراب) فى مصر والشرق الإسلامى، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية، والغض من اللغة العربية، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية وكذا بين الشعوب الإسلامية، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية المعاصرة والازدراء بها فى المجالات العالمية[(٣)].

واقرأوا هذا النص الخطير لأحد المبشرين القذرين فى مؤتمر فى القدس سنة ١٩٣٥ مخاطبًا أمثاله ممن ماتت ضمائرهم وخربت نفوسهم:

«مهمة التبشير التى ندبتكم لها الدولة المسيحية فى البلاد الإسلامية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية، فإن فى هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالى لا صلة له بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها!! ولذلك

---

(١) «التبشير والاستشراق»: ٥.

(٢) مفكر إسلامى ولد بمحافظة البحيرة من مصر سنة ١٣٢٣ ودرس فى الأزهر ثم فى ألمانيا، ونال منها الدكتوراه فى الفلسفة وعلمى النفس والاجتماع، تولى وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر. له مصنفات كثيرة. توفى سنة ١٤٠٣. انظر «تتمة الأعلام»: ٢/ ١٣٣، ١٣٤.

(٣) «التبشير والاستشراق»: ٥.

تكونون أنتم طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خير قيام.. لقد قبضنا أيها الإخوان فى هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية المستقلة أو التى تخضع للنفوذ المسيحى أو التى يحكمها المسيحيون حكمًا مباشرًا، ونشرنا فى تلك الربوع مكامن التبشير المسيحى والكنائس والجمعيات وفى المدارس التى تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية، وفى مراكز كثيرة، ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها!!!.. إنكم أعددتم بوسائلكم الخاصة جميع العقول فى الممالك الإسلامية إلى قبول السير فى الطريق الذى مهدتم له كل التمهيد، إنكم أعددتم نشئًا لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تُدخلوه فى المسيحية، وبالتالى جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات يجود بكل شىء...».

أرأيتم أحط وأسوأ من هذا الخطاب الذى يمتلئ شرًا وفسادًا وسوء نية، وفساد طوية، وقارنوا بين هذا الجهل المفسد وبين المسلمين الأوائل الذين نشروا الضياء والنور، وكانوا يريدون بالناس ارتقاءً وخيرًا ورفعةً.

وللتبشير أهداف ووسائل لايحتمل هذا المقام إيرادها[1].

---

(١) انظر للتوسع -مثالاً- «التبشير والاستشراق».

٤- الغزو الفكرى والحضارى:

وهذا بحر واسع من الكيد يتناول المجالات السياسية والإعلامية والاقتصادية والاجتماعية، واستخدم الأعداء لذلك شبكة واسعة من وسائل الإعلام سيطر عليها يهود حاقدون أو صليبيون كائدون، واليهود يسيطرون على آلاف الجرائد والمجلات والقنوات الفضائية والإذاعات فى العالم[(١)]، ويسيطرون اليوم على مئات الآلاف من مواقع الإنترنت.

٥- السيطرة على الهيئات والمجامع الدولية:

كالأمم المتحدة وما يتبعها من مؤسسات كثيرة ومتنوعة، وصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، ومحاولة تركيع المسلمين من خلال هذه المؤسسات العالمية.

٦- بث المذاهب الضالة والتيارات الإباحية:

كالشيوعية، والرأسمالية، والبهائية، والقاديانية، والوجودية، وجماعات الشذوذ الجنسى، ونشر أندية الروتارى الماسونية، واليوم ينشرون ضلالهم عن طريق «ستار أكاديمى» و«سوبر ستار» وغيرها من المسابقات المشبوهة، والإباحيات المستوردة.

٧- ضرب حركات الإصلاح فى العالم العربى والإسلامى:

وذلك عن طريق تشويه صورتها، وتحريض الحكام عليها، والتحريش فيما بينها، إلخ..

---

(١) انظر للتوسع -مثالاً- النفوذ اليهودى فى الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية، للأستاذ فؤاد الرفاعى.

٨- الاحتلال العسكري المباشر في هذه الأيام:

كدخول الأمريكان أفغانستان والعراق، والتهديد باستعمال القوة ضد بلدان أخرى فى العالم الإسلامى.

هذه بعض صور الكيد موجزة غاية الإيجاز؛ إذ ليس تفصيلها من شأن هذا الكتاب لكن يكفى ما أوردت دليلاً واضحًا على هذا الكيد العظيم.

وبعد هذا كله أقول: ما الحل؟ وما الحيلة فى تلك العقبات الثلاث: عقبة المجتمع، والعقبات الشخصية، والعقبات الخارجية؟

أما العقبة الثانية فلا حيلة للمرء فيها إلا أن يغير من طبعه، ويقلل من تأثير تلك العادات عليه، أو فى حال ضعف الذكاء وصعوبة الفهم، فعليه أن ينصرف إلى الأعمال التى تناسب فهمه وذكاءه، فإن أخلص وجاهد فسوف يترتب عليها أثر نافع مناسب إن شاء الله تعالى.

ويمكن فى زماننا هذا تجاوز عدد من صفات الضعف والخصائص المقعدة، والأمراض الشخصية والنفسية عن طريق العلاج بالدورات الإدارية، ودورات تنمية النفس والشخصية، ودورات البرامج اللغوية العصبية -على ملاحظات ألحظها فى تلك الدورات ينبغى مراعاتها، ملاحظات شرعية وملاحظات فى آليات التدريب -وغيرها من الدورات التى كثرت فى زماننا كثرة لافتة، وفيها الجيد والردىء، والغث والسمين، والمبالغ والمقبول، فعلى المرء أن يتخير منها المفيد النافع قدر إمكانه، والعاجز البائس هو الذى يظل يشاهد ضعفه، ويلاحظ تقصيره وعجزه، ثم هو لا يحرك ساكنًا، ولا يحاول القفز فوق ضعفه والدوران حول عجزه.

ويمكن أيضًا تجاوز عدد من خصال الضعف بمصاحبة الأقوياء، ومؤاخاة الأصفياء، والتقرب إلى العاملين، والاعتبار بحال الصالحين، وطلب الصحبة الصالحة، وقراءة كتب التاريخ والأدب التى هى مليئة بالعظات والعبر، وهى من أعظم المحفزات، وأقوى المثيرات فى النفوس الرغبة فى العمل والإصلاح.

أما العقبة الثالثة فهى التى ينبغى ألا تُهملَ لكن فى الوقت نفسه ألا تُضخم ويُهوّل من شأنها، وينبغى أن يعرف المرء جملة من الآيات المعينة له على تجاوز هذه العقبة، وعدم الالتفات إليها كثيرًا، فمن ذلك قوله تعالى:

١- ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٦]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:

«الله مُتِم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومعلن كلمته، ومُظهر دينه على كل دين، فهذا الخزى لهم فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب النار، فمَن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسؤوه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزى الأبدى والعذاب السرمدى»(١).

٢- وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ** ﴾ [غافر: ٢٥].

٣- وقال سبحانه: ﴿ **فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٥٩٥.

٤- أما إن انتفش الكفار فى الأرض وعلوا وتمكنوا فإن الله تعالى ينبّه المسلمين ألا يغتروا بهذا الباطل المنتفش، وأن ينظروا إليه بالمقياس الإيمانى، فيقول سبحانه: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى: «وتقلُّب الذين كفروا فى البلاد مظهر من مظاهر النعمة والوجدان، ومن مظاهر المكانة والسلطان، وهو مظهر يحيك فى القلوب منه شيء لا محالة، يحيك منه شيء فى قلوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرمان، ويعانون الأذى والجهد، ويعانون المطاردة أو الجهاد، وكلها مشقات وأهوال، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويتمتعون، ويحيك منه شيء فى قلوب الجماهير الغافلة وهى ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء، والباطل وأهله فى منجاة بل فى مسلاة، ويحيك منه شيء فى قلوب الضالين المبطلين أنفسهم فيزيدهم ضلالاً وبطرًا ولجاجًا فى الشر والفساد، هنا تأتى هذه اللمسة: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ متاع قليل ينتهى ويذهب، أما المأوى الدائم الخالد فهو جهنم وبئس المهاد»(١).

وهذا كلام من ذهب ينزل على قلوب المؤمنين بردًا وسلامًا، ويجعل الأعداء ومخططاتهم وكيدهم فى مهب الريح.

وهذا الكلام لا يعنى ألا نستعد للأعداء، بل ينبغى الإعداد النفسى والجسدى والعسكرى والسياسى والإعلامى والاقتصادى، وينبغى أن نُحسن

(١) «فى ظلال القرآن»: ١/ ٥٤٣.

الدعوة إلى الله تعالى عن طريق جماعات ومؤسسات وهيئات، وأن نحاول بكل جهدنا الوقوف فى وجه كيد أعدائنا ومخططاتهم لكن دون مبالغة فى تقدير قوتهم حتى لا تصاب الأجيال بالإحباط واليأس.

وقد أثبتت الأحداث الماضية، أن الأشخاص العظماء الذين عملوا أعمالاً جليلة أمضوها على رغم أنف الكافرين ومعارضتهم، وأنهم لم يستطيعوا عمل شىء لإيقافها، وإليكم مثالاً من العصر الحاضر: إنه الطبيب البشرى الكويتى عبد الرحمن السميط حفظه الله تعالى ووفقه، فقد استطاع بفضل الله تعالى أن يغير التاريخ فى إفريقيا السوداء حيث اجتمعت قوى الكفر فى كولورادو بأمريكا سنة ١٣٩٨- ١٩٧٨ لتقرر أنه ما إن تأتى سنة ٢٠٠٠ إلا والقارة الإفريقية السوداء نصرانية، فخيّبهم الله تعالى على يد عباد له أبرزهم -فى ظنى- هو هذا الطبيب الذى وفّقه الله تعالى لبناء آلاف المساجد، وحفر آلاف الآبار، وعمل بعض الكليات العلمية والإذاعات المحلية، وأنشأ عددًا كبيرًا من المستوصفات والمستشفيات، وأسلم بفضل الله تعالى ثم بجهوده وجهود مَن معه عدد ضخم أخبر هو أنهم قد بلغوا خمسة ملايين ونصفًا، وهو رقم يُخضع له، وعيّن عددًا كبيرًا من الدعاة، وأنشأ فروعًا للجنته لجنة مسلمى إفريقيا فى دول إفريقية كثيرًا، وأنشأ جمعية العون المباشر، وعمل أعمالاً كثيرة لم يستطع الفاتيكان -على فتكه وشدة تأثيره- أن يصنع لها شيئًا، وما استطاعت دول الكفر إيقافه، وتخطى العقبات التى وضعوها فى طريقه، وأنشأ عملاً جليلاً، وترك أثرًا عظيمًا لا يُنسى على مر الزمان ولا كرور الليالى والأيام إن شاء الله تعالى.

أما العقبة الأولى -عقبة المجتمع- فهى أشد العقبات، وأفعلها فى النفوس، وهى التى تقرّب المرء من اليأس وتصرفه عن المعالى إن ركن إليها واستجاب لها، لكن كيف العمل وهى شديد فتكها، عظيم أثرها؟ إن السبيل لهذا هو التالى:

١- الاستعانة بالله تعالى:

وهى نعم العُدّة وقت الشدة، وهى الأمل الذى يخفف كثيرًا من المتاعب.

قال النبى ﷺ: «**استعن بالله ولا تعجز، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف**»[(١)].

٢- محاولة الالتفاف حول العقبات والحواجز:

وهذا شأن البطل الذكى الموفق، إذ يحاول الالتفاف حول هذه العقبات والحواجز أو القفز فوقها بكل ما أوتى من قوة:

جمعنى لقاء ببعض الدكاترة الأكاديميين فى إحدى الجامعات، وكانوا على غاية من التذمر والتشاؤم يصعب وصفها، وذلك بسبب ضعف ميزانية البحث العلمى، وبسبب ضعف المعامل والمختبرات، فقلت لهم: إن هذا شىء

---

(١) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: كتاب أبواب القيامة، بألفاظ مقاربة عن ابن عباس رضى الله عنه وأوله: كنت خلف النبى ﷺ، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى فى مسنده وعلق المحقق بأن إسناده قوىّ.

معلوم، وأمـر واقع لكن لابد لكم من تجاوزه بطريقة ما، ولو أن تتـحدثوا مع الأغنيـاء والوجـهـاء، وتوصلوا الأمـر إلى المسـئولين، لـكن لا تظلوا هكذا متشائمين محبطين، والعجيب أنهم كانوا كلهم حديثى التعيين، فكيف لو طال عليهم العـمر وامتـدّ بهم الزمان؟ إذًا لكان التشـاؤم والإحباط قد رسخ فـيهم رسوخًا يصـعب تجاوزه، والشاهد من هذا المثـال الذى أتيت به هو كيف أنهم استسلموا تمامًا لهذه العقبة التى يمكن إزاحتها بالصبر والعمل.

ومثال آخر مهم:

جمعنى القدر فى إحدى كليات الهندسة بأستاذ مهندس مصمم للطائرات، كان قد خرج من بلده عقب إغلاق مصنع الطائرات فيها بضغط غربى، فقلت له: ماذا تصنع فى هذا البلد وليس فيه مـصنع للطائرات؟ فقال: أريد أن أكون بجوار الحرمين!!

فقلت له: يمكــن أن تأتى للحرمين فى إجـازتك السنوية، لكن اذهب إلى ماليزيا أو أندونيسيا وشارك فى صناعة الطائرات الإسلامية، ولا ترضَ بالعجز والقعود. فنظر إلىَّ نظر الذى انتبه، ووعد خيرًا.

٣- عدم الالتفات إلى العقبات شبه الوهمية:

والذى أعنيه من العقبـات شبه الوهمية هى العقبـات التى تنتج بسبب كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، والغيرة، وغير ذلك من الأمراض النفسية، وإنما قلت هى شبه وهمـية لأن لها أثرًا ولا شك لكن لا يرقى -فى أحوال كـثيرة- إلى أن يكون أثرًا مُقعدًا للـشخص، وذكـر الله تعالى يذهبـه، وقـراءة القـرآن

-خاصة سورة البقرة- يزيله إن شاء الله تعالى، والمحافظة على حُسن الصلة بالله يضعفه أيّما إضعاف، ولله الحمد.

٤- توطين النفس على العمل مهما أحاط بها من مشكلات:

وهذا أمر ليس باليسير ولا السهل بل هو فى غاية من الصعوبة، إذ يقلّ مِنْ الناس مَن إذا أحاطت به المشكلات لم يتأثر بها التأثُّر المقعد له عن تحصيل الكمالات وبلوغ المعالى، ولكن أيضًا قليل من الناس مَن يصل إلى المعالى وإلى العمل المؤثر النافع.

- فإذا أزعجتك زوجك فاخرج من بيتك، أو اجعل بينك وبين نكدها وإلحاحها وإزعاجها -إذا لم يكن له وجه حق وإلا لزمك الاستماع لها- حجابًا، وعوّد نفسك على ذلك إن لم يمكن حل مشكلتها، وكذلك الزوج مع زوجها المزعج المؤذى إن لم يوجد حل نافع معه، مع الفارق فى الوسائل طبعًا.

- وإذا ضايقك مديرك ورئيسك، وضيّق عليك، فعُدَّ هذا من جملة البلاء الذى لابد لك منه، ونفِّس عن نفسك بعد خروجك من عملك أو غيِّر هذا العمل المزعج.

- وإذ أتعبك الأولاد فقل لنفسك: وهل من أولاد على وجه الأرض لا يُتعبون؟!!

- وإذا ضاقت عليك الأرض بما رَحُبت فافزع إلى المولى عسى أن يكشف عنك الغمّة ويوصلك إلى مرادك.

وهكذا بهـذا السلوك تنجو من الاكـتئاب والضـيق المقعـدين لك عن بلوغ المعالى ومواصلة العمل الذى به ستترك الأثر النافع فى دنيا الناس.

٥- توقع البلاء:

وهذا أمر مهم فى رد كـل العقبات، إذ لابد للمرء أن يفـهم أنه إن تصدّى لعمل كبير ضخم فسيجد من المشكلات الكثيرة الضخمة الشىء الكثير، ولابد له أن يفهم أيضًا أن هذا من جملة البلاء الذى لابد للصالحين والعاملين منه.

قال تعالى: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال جل من قائل: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣١].

الله أكبر.. يريد الله تعالى أن يرى ما نصنع حـال البلاء، وما هى أخبارنا آنذاك، فلنرِ الله تعالى من أنفسنا قوة، وعزمًا، ومضاءً، وصبرًا ورضا.

وقال ﷺ عندما سئل عن أشد الناس بلاءً فقال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسـب دينه فإن كان دينه صُلبًا اشتـد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة**»(١).

---

(١) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه وقال: حديث حسن صحيح.
وانظر -للتوسع فى تخريج الحديث- «فتح البارى»: ٢١/ ٢٢١، ٢٢٢.

ثم ما هو حجم هذا البلاء النازل بأحدنا مقارنة بما كان يبتلى به الأنبياء والصالحون من قتل وتعذيب ونكال؟!.

فعن خباب رضى الله عنه قال: «أتيت النبى ﷺ وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو مُحْمَرٌّ وجهُه فقال: **«لقد كان من قبلكم ليُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»**[1].

وهناك سؤال مهم:

قد يسأل سائل: كيف أعمل وأنا محاط بالمشكلات؟!

فأقول له: وكيف تعمل فى وظيفتك وأنت محاط بالمشكلات؟! هل يرضى منك أرباب العمل أن تعتذر عن عدم العمل بسبب المشكلات العائلية أو الشخصية؟! وهل إذا رضوا يومًا أو أسبوعًا أو شهرًا فسيرضون بآخر؟! فإذا كنت قد وطّنت نفسك على العمل الوظيفى وقد أحاطت بك المشكلات فوطن نفسك أيضًا على العمل للوصول للأثر النافع الصالح وقد أحاطت بك المشكلات!!

كنتُ قد عملت مدربًا للطيارين مدة، فكنت أقول لطلبتى: إذا كنتم تعانون من مشكلة طلبتُ لكم إجازة من التدريب لتحلُّوا مشكلاتكم ثم تعودوا أو

(١) صحيح الإمام البخارى: باب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

توطّنوا أنفسكم على نسـيان المشكلات حال التدريب، لأنى لن أقـبل من أحد منكم عذرًا لتقصير يعزوه إلى مـشكلاته؛ إذ عمل الطيران خطير وحساس ولا يقبل مثل هذه الأعذار.

وهكذا الطبيب الجراح يُجرى أعقـد العمليات فى الدماغ والقلب وهو لابد له من مشكلات تعكر عليه لكنه ينساها ساعة عمله، إلخ. . .

فعمل الدعوة أحرى وأولى أن يُمارس مهما كان الإنسان محاطًا بالمشكلات والهـمـوم، ومن ذا الذى خـلا يومًـا من الهـمـوم؟ ومن ذا الذى خلص من المشكلات وأنواع الغموم؟



الخاتمة

فى نهـاية هذا المطاف أعود لأذكـر إخوانى العـاملين من الدعاة والمشـايخ والعلماء وطلبـة العلم والفضـلاء بأن من أعظم نعم الله تعالى على العـبد أن يرزقه عملاً صالحًـا ينتج عنه أثر عظيم، يظل يتقلب فى حسناته إلى يوم يلقى الله تعالى، ومـا سقـته فى هذا الكتـاب -على وجازته- أكبـر دليل على هذا الذى أقوله، فليحرص إخوانى على طلب هذا العمل، وليعضوا عليه بالنواجذ إن وجدوه، فهو -والله- الذخر الأعظم والغنيمة الكبرى.

فيـا رب أسألـك أن تهبنا هذا العـمل العظيم، وتجـود علينا بأثره الجليل، وأسألك ألا تموت آثارنا بموتنا، وألا ينسى الناس أعمـالنا فلا يعودون يذكروننا فيترحمون علينا ويستـغفرون لنا، وأن تجعل كل ذلك خالصًا لوجهك الكريم، لا رياء فيه ولا سمعة، ولا منٍّ فـيه ولا جحود لنعمك، ولا نكران لفضلك، ولا نسيان لآلائك، إنك ولى ذلك والقادر عليه.

وصل اللهم وسلم على سيـدنا محمد وآله وصـحبه أجمـعين، والحمد لله رب العالمين.



فهرس المصادر والمراجع

• **القرآن الكريم.**

١- **اقتصاد المستقبل**: د. توفيق الشاوى.

٢- **التبشير والاستشراق فى ميزان الإسلام**: د. عمر بن عبد العزيز قريشى.

٣- **تتمة الأعلام** : محمد خير رمضان يوسف. نشر دار ابن حزم. بيروت. الطبعة الثانية سنة ١٤٢٢.

٤- **التحرير والتنوير**: الأستاذ الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣) نشر الدار التونسية للنشر، سنة ١٤٠٤.

٥- **تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى**: محمد بن عبد الرحمن المباركفورى (ت ١٣٥٣) مراجعة الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف.

٦- **التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطريق التغلب عليه**: د. على عبد الحليم محمود، نشر دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٤.

٧- **تفسير القرآن العظيم**: الحافظ ابن كثير: إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤) نشر دار الشعب بالقاهرة، تحقيق مجموعة من الدكاترة.

٨- **التيار الإسلامى فى فلسطين وأثره فى حركة الجهاد ١٩١٧ - ١٩٤٨**: الأستاذ محسن صالح، نشر مكتبة الفلاح، الكويت.

٩- **حكايات كفاح**: د. كفاح فياض. نشر قرطبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦.

١٠- **ذكريات:** الأستاذ على الطنطاوى، نشـر دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧.

١١- **ذيل الأعلام:** أحمد العلاونة، نشـر دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٢.

١٢- **سنن ابن ماجه القزوينى:** (ت٢٨١) تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، نشر دار الحديث، القاهرة.

١٣- **سيدنا محمد رسول الله ﷺ.. شمائله الحميدة وخصاله المجيدة:** عبد الله سراج الدين، نشر مكتبة دار الفلاح، حلب، الطبعة السابعة سنة ١٤١٠.

١٤- **صحيح مسلم بشرح النووى**، وشرح صديق حسن خان، وشرح القاضى عياض.

١٥- **صلاح الأمة فى علو الهمة:** سيد بن حسين عفانى، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧.

١٦- **طريق النصر فى معـركة الثأر:** اللواء ركن محمـود شيت خطاب، نشر دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥.

١٧- **عـجـز الثـقـات:** لمصنف هذه الرسـالة، دار الأندلس الخـضـراء للنشـر والتوزيع، جدة، الطبعة التاسعة سنة ١٤٢٦.

١٨- **عداء اليهود للحركة الإسلامية:** زياد محمود على، نشر دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢.

١٩- **عظماء ومشاهير معاقون غيروا مجرى التاريخ:** أحمد الشنوانى، نشر دار الكتاب العربى، دمشق، القاهرة. الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٤.

٢٠- **فتح البارى بشرح صحيح البخارى:** ابن حجر العسقلانى: أحمد بن على (ت٨٥٢)، مراجعة وضبط عدد من الأساتذة، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، سنة ١٣٩٨.

٢١- **الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى:** الأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا (ت١٣٧٥)، نشر دار الشهاب، القاهرة.

٢٢- **فى ظلال القرآن:** الأستاذ سيد قطب (ت١٣٨٦) نشر دار الشروق ودار العلم، جدة.

٢٣- **المعجم الوسيط:** تأليف مجموعة من الأساتذة، نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة.

٢٤- **المؤتمر النسائى الشرقى:** نشر المطبعة العصرية بمصر.

٢٥- **نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:** للإمام الذهبى، والتهذيب لواضع هذه الرسالة، نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤١١.

٢٦- **النشر فى القراءات العشر:** الإمام ابن الجزرى (ت٨٣٣)، تصحيح على محمد الضباع.

٢٧- **نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ:** إعداد مجموعة من الأساتذة، نشر دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨.

فهرس الموضوعات